فتحى العشرى

مفكرون.. لكل العصور





مفكرون .. لكل العصور

فتحى العشرى

مفكرون.. لكل العصور

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

إلى الصحفى اللامع
والزميل الموضوعى
محمد زايد،
صاحب فكرة هذا الكتاب

فتحى العشرى



تقـــديم

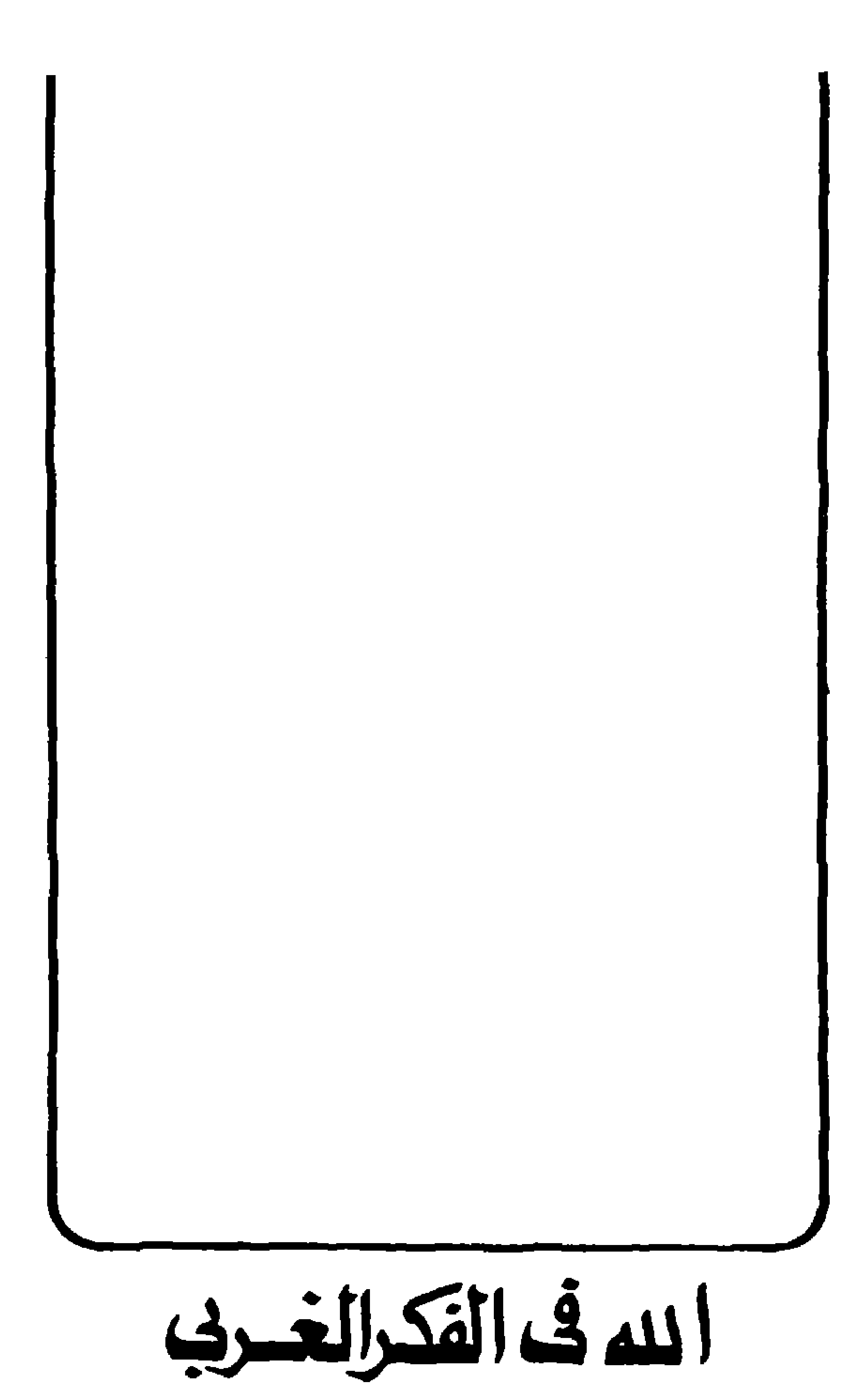
هذا الكتاب الصغير حجماً ، الكبير من حيث المحتوى ، هو محاولة جادة وخالصة للتعريف بحركة الفكر الإنسانى وتياراته المختلفة عبر التاريخ ، تعريفاً سريعاً وليس متسرعاً ، بسيطاً وإن كان دقيقاً ، محيطاً وإن جاء مكثفاً .

وهو إذ يستهدف إنزال « الفلسفة » من برجها العاجى وتقريبها من « الناس » يعمد إلى الاختيار ويستند على التركيز ، مواكبة لروح العصر ونبضه وإيقاعه ، مراعاة لطاقة القارئ المعاصر » وقدرته واحتماله ، دون الدخول فى تفصيلات ، أو الوقوع فى متاهات ، أو الانزلاق فى تهويمات ، قد تُعَقِّدُ ما يمكن شرحه بسهولة ، وتَعُوق ما يمكن استيعابه بِيُسْر ..

أما « الاختيار » فلايعنى « التفضيل » ، فهو اختيار مؤقت قائم على التنويع والتصنيف ، تمهيداً لتقديم « موسوعة مصغرة » شاملة وكاملة بقدر المستطاع فى المرحلة أو المراحل التالية ..

وعلى هذا فقد وضع فى الاعتبار إضافة ثلاثين من أبرز المفكرين ، بدءًا بسقراط وأرسطو وأفلاطون من اليونان القديمة ، والكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد من مفكرى الإسلام ، وانتهاء بمكيافلّى من الإيطاليين ، ومونتانى وكونت مونتسكيو وديدرو وفولتير وسارتر من الفرنسيين ، وكانط وهيدجر وكيركجارد من الألمان ، وبيكون ولوك وباركلى من الإنجليز ، وديوى وماركيوز من الأمريكان وأونا مونو من الأسبان .. دون أن يقلل ذلك من شأن وقيمة وريادة المفكرين الآخرين الذين قد تتاح الفرصة للتعريف بدورهم الفعال ، وتناول فكرهم المؤثر فى إنسان زمانهم وإنسان هذا الزمان .. لتستمر الحياة ويتقد الفكر وتبقى الكلمة !

فتحى العشرى



الله في الفكر الغربي

الله فى الفكر الغربى

من عصر النهضة إلى قرننا العشرين ، فَكَّرَ فى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عشراتُ الفلاسفة ، آمن به أكثرهم ، وأصيب البعض - برغم علمهم - بعماء البصيرة فألحدوا .. ونختار هنا - لضيق المساحة - عشرة فلاسفة على حسب الترتيب الزمنى من فرنسا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، وأمريكا ، ممن قدموا بالمنطق الحَدْسى والعقلى والعلمى الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته وعظمته سبحانه .

ميشيل دى مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢) : مفكر فرنسى عبر بالأدب عن فكرة الشك كطريق إلى اليقين ، وكتب « مقالات » تندد بالنزعة السائدة التى تمجد قدرة العقل على معرفة الوجود ، لأن العقل قوقعة داخل النفس الإنسانية ، ولذلك فإن اليقين هبة من الله .. أما الملامح الإلهية

فإن ما يميزها أو يدركها هو الحَدْس أو الإحساس الإنسانى بعيدًا عن التصور العقلى القاصر فى هذا المجال .. وهكذا يعارض « مونتاني » الأرثوذوكس فى ثقتهم المطلقة بالعقل العارف بالله ، وأتباع « أرسطو » فى ثقتهم المطلقة بالإنكار ..

جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) : راهب دومينيكى ، ترك الرهبنة وهاجم الكنيسة الكاثوليكية وهجر وطنه إيطاليا ، وعندما عاد اعتقل ثم أعدم حرقاً بتهمة الإلحاد .. ومع هذا كان « برونو » مؤمناً بالله عن طريق العقل والإيمان الطبيعى وليس عن طريق العقيدة والوحى .. فهو يرى أن الله والطبيعة الجوهرية شىء واحد ، وأن الله يتجلى فى الطبيعة ، وهو الواحد الأبدى الذى يخرج منه الوجود اللامتناهى .. على هذا الأساس العقلى عرف « برونو » الله واعترف به دون حاجة إلى الإيمان الذى يفترض عدم قدرة العقل على معرفة الله .

فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) : مفكر إنجليزى أقام ثنائية بين العلوم الطبيعية والوحى الإلهى ، وميز بين كلماته لله (الكتاب المقدس) وأعماله (الطبيعة) وإمكانية التنوير المشترك بينهما بعد أن تعذر إدراك كل منهما بمنطق الآخر ، على عكس اللاهوتيين الذين يقولون باكتشاف حقائق الوجود بالعقل والوحى معاً ، ومنها أن الله خلق الكل

تبعاً لخطة منظمة ، وأنه وجهها جميعاً نحو الكمال وأحاطها بعنايته .

رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) : مفكر فرنسى توصل من خلال « تأملاته » فى الكون والإنسان إلى اليقين ، الذى يؤكده علم الطبيعة تأكيدًا مؤداه أن لا وجود من عدم ، ولا موجود إلى عدم ، وبما أن الإنسان موجود لايمكن أن يفنى ولاحتى بفعل الموت ، أما الخالق فهو كائن كامل قادر أزلى لامتناهى ، لأنه أصل الوجود وسببه ، وما الإنسان إلا صورة مصغرة منه ، ومحدودة القدرة بالنسبة له .. ويشرح « ديكارت » بمنهجه الذى يبدأ من الشك لينتهى إلى اليقين حقيقة الوجود ، فيرى أن الله قد خلق العالم خلقاً مستمرًّا ولم يخلقه على مراحل ، وقد خلقه على صورته الأزلية منذ كانت وإلى ما ستكون .

بلاز بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) : مفكر فرنسى دافع عن الدين ، ودعا إلى الإيمان فى « خواطره » من منطلق اليقين الرياضى ، مبيناً أن العدالة الإلٰهية يمكن تأكيدها بالاستدلال الرياضى ، وبهذا الاستدلال نفسه يمكن التيقن من أن كل شىء من صنع الله وحده ، وأن الإنسان أثر من آثار الله ودليل على وجوده وإرادته وخلوده .. فإذا كان الإنسان

هو مصدر النزعة إلى السعادة فإن الله هو غايتها ، وإذا كان الإنسان يتطلع إلى الأبدية فإنما يتشبه بالإله الأبدى .

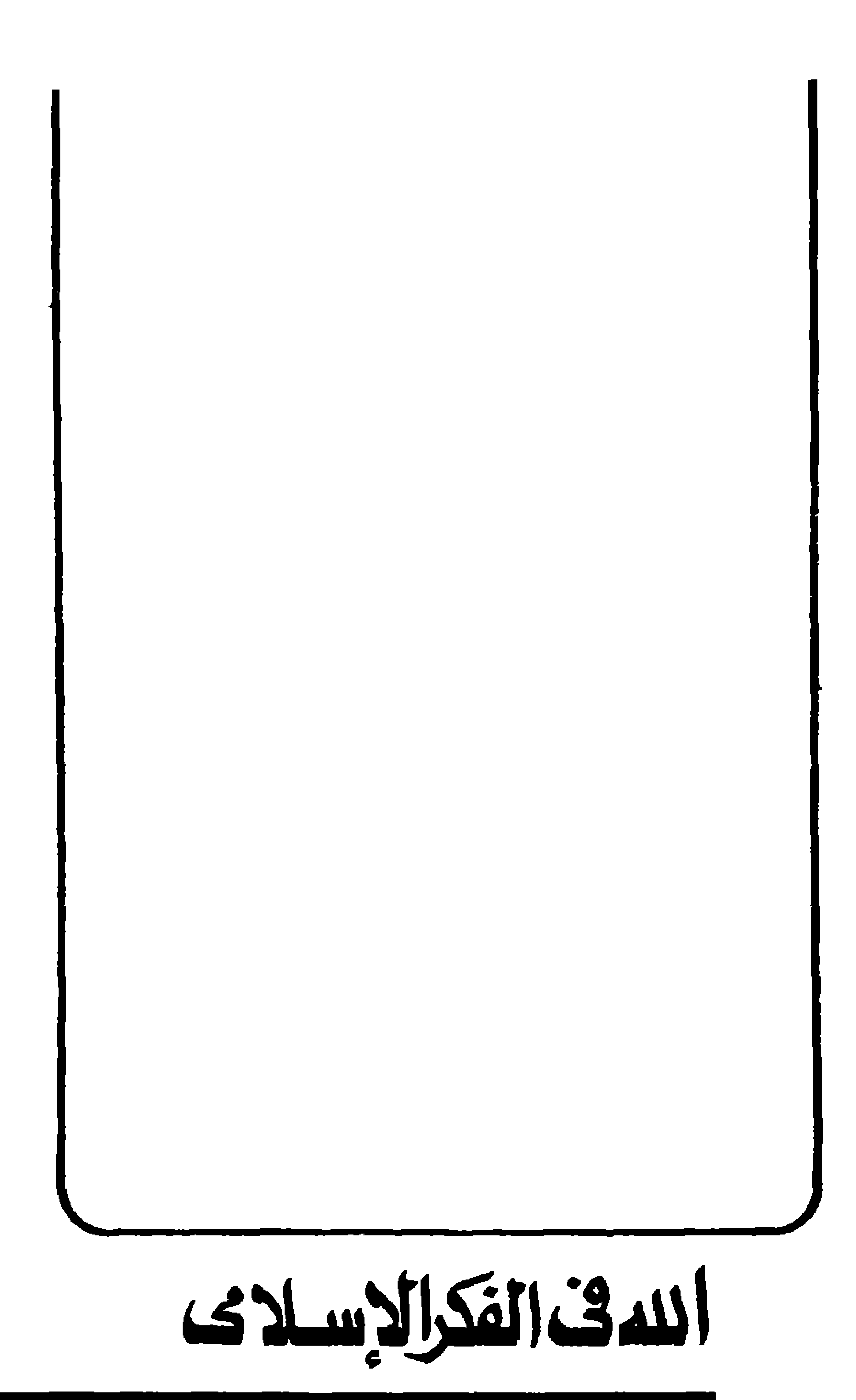
كريستيان فولف (١٦٧٩ - ١٧٥٤) : مفكر ألمانى دعا إلى تزاوج المعارف الثلاث ، التاريخية والفلسفية والرياضية ، لمعرفة الله والوجود والإنسان ، مرورًا بالشك ، وعبورًا إلى التجريب ، واستقرارًا عند العقل . كما وفق فى ثنائيته الجذرية - أو الجوهرية - بين اليقين التجريبى العقلى واليقين الفلسفى الرياضى .. وقد عمل « فولف » على إثبات وجود الله بالفكر المجرد والدليل المادى ، أو بفكرة الكائن الأكمل ، وبدليل أن الله هو سبب الوجود بما فى ذلك ذاته العليا المتعالية .

مارى آروويه فرنسوا فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) : مفكر فرنسى قاد حملة التسليم الفلسفى بالله ، دعم مذهبه فى الألوهية بالاستناد إلى العلم ، وخاصة نظرية « نيوتن » عن العلة الأولى ، والتى ترى فى نظام الجاذبية والحركة المنتظمة واتجاه الكواكب والنجوم المتجانس دليلاً على وجود إرادة أسْمَى ، وذكاء أعلَى ، خَلَق كل شىء ورتَّبه فى حرية ، ومع هذا سمح فولتير للعقل بأن يرى الله فى الطبيعة وفى الإنسان ، على العكس من « بسكال » .

إيمانويل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤) : مفكر ألمانى أعلن أنه لايملك دليلاً قاطعاً على وجود الله ، ولكنه اعترف بوجوده ، واعتبره بديهة أخلاقية .. واستبعد قانون أو مبدأ المصادفة فى نشأة الكون ، ذلك أن القوى المادية ذاتها تقوم على علة أولى هى الله ، برغم أن هذه القوى – بل الوجود كله – لايفضى إلى الله ، لأن الله هو الواحد الذى لا يسبقه أحد ، وهو الأزل والأبد .

ج . ف . **هيجل** (١٧٧٠ – ١٨٣١) : نقل الفلسفة الألمانية من عصر التنوير إلى المثالية التى سادت أوربا وأمريكا .. وعرف هيجل لأول مرة الله فلسفياً ودينياً واجتماعياً من خلال نظريته فى المطلق .. فهو يرفض البرهان على وجود الله إذا كان مصدره الحاجة إلى قوة خارجية ، لأن وجود الله مطلق غير مرهون .

وليم جيمس (١٨٤٠ – ١٩١٠) : مفكر أمريكى درس الطب والفسيولوجيا ، وحاول أن يوفق بين النزعة الذرية والآلية فى عصر التطور الذى نعيشه ، وبين المعتقدات الدينية والأخلاقية التى سبقه إليها أسلافه من الفلاسفة ، فى إطار « البراجماتية » كمذهب نفعى ، لايعارض فى الإيمان بإله مُتَنَاهٍ خَيِّرٍ .. وهو إلهٰ لايحجب الحرية عن مخلوقاته ، وبالذات الإنسان ، صورته المثلى .



الله فى الفكر الإسلامى

الله فى الفكر الإسلامى

مثلما اخترنا عشرة من فلاسفة الغرب ، ممن قدموا بالمنطق الحَدْسى والعقلى والعلمى الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته وعظمته سبحانه ، نختار عشرة من فلاسفة المسلمين الذين آمنوا بالله وبرسوله ، عليه صلوات الله وسلامه .

أبو يوسف الكِنْدِى (٨٠١ – ٨٦٥) : مفكر عراقى ، اجتهد فى التوفيق بين النبوة والعقل ، وقارن بين الديانات حتى أثبت أنها تدعو جميعا إلى الاقتناع بأن الوجود مصدره العِلَّة الأُولى الواحدة الأزلية ، أى الله .. هذا الوجود مخلوق لله ، لأن الأعلى يؤثر فيما دونه ، أما المعلول فلايؤثر فى العلة ، لأنها أرقى منه فى مرتبة الوجود .. والله هو العقل الأول ، وهو علة كل معقول فى الوجود .. ومعنى هذا أن كل ما نعرفه عن الموجودات هبة من الله ، وما عِلْمُ الإنسان إلا فَيْضٌ من الله .

أبو نصر الفارابى (٨٧٠ – ٩٥٠) : مفكر تركى ، ذهب إلى أن كل موجود واجب الوجود ، والله أزلى ، لأنه موجود لايعتريه التغيُّر ، هو عقل ، وخير ، ومعقول ، وعاقل محض ، وهو البرهان على جميع الأشياء ، وهو العلة الأولى لسائر الموجودات .. لذلك هو واحد لاشريك له ، يصدر منه العالم منذ الأزل ، وعنه يفيض منذ الأزل وجودٌ ثانٍ ، هو العقل الأول الذى يحرك الفلك الأكبر .. أما الإنسان فلايحصل المعرفة باجتهاده ، بل تجىء إليه المعرفة هبة من الله ، ذلك أن الله عقل قبل أن يكون إرادة ، والخلق إنما يجىء نتيجة لتعقل الله لذاته .

أبو على ، ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٦) : مفكر بخارى ، قال بفكرة الوحدانية حيث يتوحد فى ذات الله الوجود والماهية ، ذلك أن الماهية فى جميع الكائنات المخلوقة منفصلة عن الوجود الذى ليس سوى عَرَض من الأعراض .. وبما أن الله هو العِلَّة الأولى التى لا علة لها ، فإنه يكون هو الخالق بالضرورة ، وبالضرورة تجىء الخليقة نتيجة لوجود الله من حيث هو وحدة مطلقة تندمج فيها المعرفة والإرادة والقدرة .. وككل الصوفيين يصل « ابن سينا » إلى الاتحاد العقلى مع الله عن طريق الإدراك الحَدْسى ، ويسلم للنبى بمعرفة حدسية تلقائية تضعه فى مرتبة أعلى من البشر أجمعين .

أبو حامد الغزالى (١٠٥٩ - ١١١١) : مفكر فارسى أخذ بآراء المتصوفة ، وأعلن أنه أدْرك بالحدس الداخلى المباشر أن الله قد خلق الإنسان على صورته ، وعلى هذا يستطيع أن يقيس قدرة الله فى الخلق على قدرة الإنسان فى الفعل الإرادى الصادر عن إرادة حرة . ولايجوز قياس خلق الله للكون على العلاقة السببية فى ظواهر الطبيعة ، لأن الله إذا أشبه الإنسان فهو لايشبه الطبيعة .. فالله هو الموجود القادر على كل شىء وهو المريد الفعال .

أبو الوليد ، ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) : مفكر أندلسى وجد أن الكتاب المنزل يتضمن الحقيقة الكاملة ، وينبغى التسليم بآياته بمعناها الحرفى ، باعتبارها الحقيقة الدينية التى تستعصى على العقل البشرى لأنها من عند الله ، وعلى هذه الأسس تمتاز الشريعة على القانون الدنيوى ، ذلك أن هذا القانون يعنى بسعادة الصفوة وحدها ، أما الشريعة فتضمن لكل مؤمن نصيبه من السعادة . ويساير « ابن رشد » التفسير التقليدى للنبوة ، مؤكدًا على ما فى شخصية محمد (عليه السلام) من امتياز وتفوق ، باعتباره المُشَرِّع المُرْسَل من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى .

محمد إقبال (١٨٧٣ - ١٩٣٨) : مفكر باكستانى ، استطاع أنْ يقيم العلاقة بين الله والإنسان ، فإذا كانت ذات الله هى الذات الكاملة التى لاتشبهها ذات أخرى على

الإطلاق ، كان المثل الأعلى أمام الإنسان هو أن يتخَلَّق بأخلاق الله ، وأن يسود الأرض التى سخرها له الله ، لأنه خليفة الله فى الأرض .. وعلى ذلك فالإنسان تكمل ذاته أو تنقص بمقدار قربه أو بعده عن ذات الله . ويعارض « إقبال » الذين يَدَّعُون أن عالم المادة وهم باطل ، ويؤيد الذين يرون فى العالم مظهرًا لجمال الله ، وحكمة الله ، وإرادة الله .

عباس العقاد (**١٨٨٩ - ١٩٦٤**) : مفكر مصرى ، الله عنده ذات واعية ، لأن الوعى سابق على العقل محيط به .. أما الوعى الكونى المركب فى طبيعة الإنسان فهو مصدر الإنسان ، وهو مصدر الإيمان بوجود الحقيقة الكبرى التى تحيط بكل موجود .. وما العقيدة إلا همزة الوصل بين الكون والإنسان من ناحية ، وبين الكون وجميع الموجودات من ناحية أخرى .. على أن الذات الإلهية لاتوصف بصفات ، لأنها فوق كل الصفات ، وإنما هى « كمال مطلق » لايحيط به العقل المحدود .. والإيمان بالوعى والحس والبديهة والعقل إيمان رشيد ، وهو خير تفسير لسر الخليقة .

أحمد زكى (**١٨٩٤ - ١٩٧٥**) : مفكر مصرى ، وجد أن طريق العلم هو طريق الإيمان بالله ، فقد أخذ يبحث فى ظاهرة الكون مستهدفاً الكشف عن بعض جوانب الله ، بحثاً مجملاً لا مفصلاً ، حتى يضع يده على الحقائق التى تثير العقل ، فيفهم بحيث يؤدى هذا الفهم إلى إدراك ما فى الكون

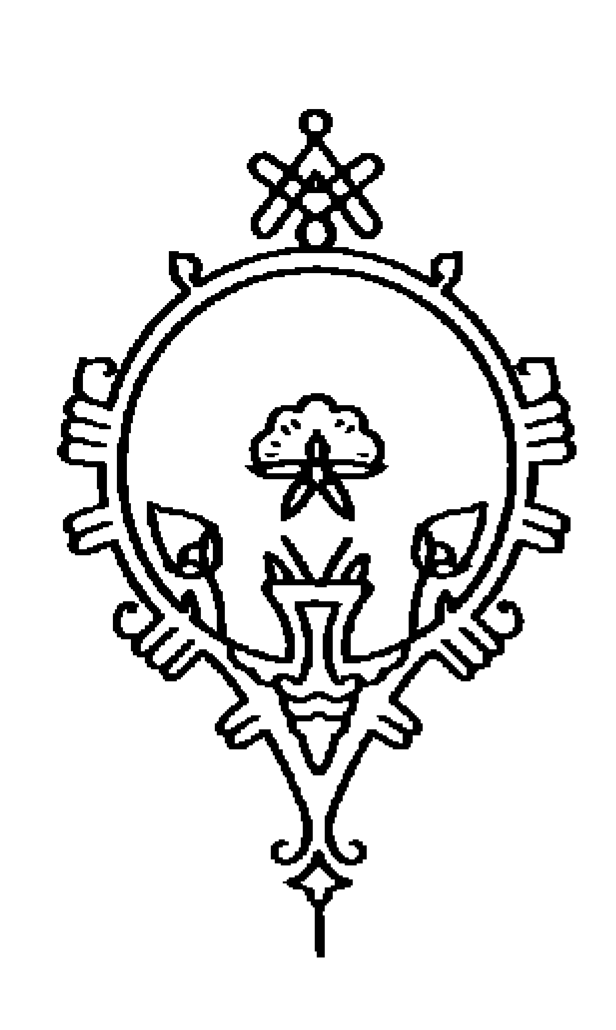
من تنظيم وتنسيق وراءهما عقل مدبر ، ثم إدراك الأسلوب الواحد الذى يجرى عليه هذا النظام ، وهذا النسق .. بهذا الفهم العقلى الممتزج بمعرفة القلب نؤمن بوحدة الوجود التى لاتهم تسميتها ، وإن اصطلحنا على اسم « الله » .

مصطفى محمود : مفكر مصرى يرى أن تَخَطِّىَ حدود العقل عند الصوفية ليس معناه إهدار العقل ، وإنما الاستفادة منه إلى آخر مدى ، ذلك أن المؤمن لا يرى الله بعينه ولابقلبه ولا بروحه ، ولكنه يرى الله بنور الله ، ويحاول أن يتخلق بأخلاقه ، وأن يتحلى بأسمائه الحسنى ، وأن يتقرب منه وله بالصفات لابالمكان ، وبالتفانى لا بالتمنى ، عندئذ يستطيع الفائز فى هذا الجهاد الأكبر أن يرتفع بنفسه إلى مستوى الملأ الأعلى بعد أن يتخطى العالم المادى ، متخطياً نفسه وحدود عقله ، فلا إله إلا الله ..

أحمد بهجت : مفكر مصرى ، يتخذ من آيات القرآن الكريم ركيزة محورية لتصور ذات الله ، ولكنه يمزج بين الوجدان والعقل فى معادلة قادرة على أن تقنع ، وتشبع طموحاً فى الخروج برسالة معاصرة فى التوحيد .. ويأخذ برأى أهل السلف والسنة فى عدم تقييد الذات الإلهية بأى صفة من الصفات ، فهو تعالى ، ليس كمثله شىء ، تماماً كما أراد المعتزلة ، إمعاناً فى تنزيه الله ، أن يسلبوا الصفات عن ذاته

الإلٰهية .. ويرى أن الإيمان بعد معرفة هو أوثق إيمان ، مع أنه لا هداية إلا به « إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحببت وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يشاء » .

وَيَبْقَى أن نفصل ما أجملناه – غربيًّا وإسلاميًّا – ونضيف أيضاً فى مناسبة أخرى إن شاء الله .





ابـن خلـدون
وفلسفة الـذات

١٣٣٢ - ١٤٠٦

ابن خلدون وفلسفة الذات
(١٣٣٢ - ١٤٠٦)

المفكر العربى « أبو زيد عبد الرحمٰن محمد بن خلدون » ولد بتونس فى السابع والعشرين من مايو عام ١٣٣٢ وإن كان من أصل حضرمىّ . وتوفى فى السادس عشر من مارس عام ١٤٠٦ . حفظ « ابن خلدون » القرآن وجوَّده فى صباه ، ثم تتلمذ على والده وعدد من علماء الفقه ، ولكن مرض الطاعون عاقه وهو فى الثامنة عشرة عن استكمال دراسته ، كما ضاق لهجرة علماء تونس إلى المغرب الأقصى هرباً من هذا الطاعون الجارف ، فاتجه إلى تولى الوظائف العامة ، وعُيِّنَ « كاتباً للعلامة » فى عهد « ابن تافراكين » ولما فر إلى المغرب عينه السلطان أبو عنان عضوًا فى مجلس « فاس » العلمى ، فعاود دراسة الدين والأدب وتفرغ لهما . ونتيجة للتقلبات

السياسية سُجن « ابن خلدون » عامين ، ثم أطلق سراحه ليتولى وظيفة « خطة المظالم» فى عهد السلطان أبو سالم ، وقد أداها بعدالة وكفاية ، ورحل إلى « غرناطة » وعمل سفيرًا لها بإشبيلية . فاستقرت أحواله المالية والاجتماعية مع زوجته وأولاده ، وعندما استرد « السلطان الحفصى » عرش تونس استدعى ابن خلدون وعينه فى منصب « الحجابة » أو رئاسة الوزراء . وضاق بالمناصب فتفرغ من جديد للتدريس والكتابة بعد أن عاد مرة أخرى إلى غرناطة .

وجاء « ابن خلدون » إلى القاهرة عام ١٣٨٢ فعمل بالأزهر ، ثم عُين فى منصب قاضى قضاة المالكية ، وصُدِمَ فى مصرع زوجته وأولاده وهم فى السفينة القادمة إلى الإسكندرية ، وانقطع لاستكمال مؤلفاته حتى تُوفى بالقاهرة ودُفن بها .

ولمُقدمة ابن خلدون قيمة عظيمة لدى علماء الاجتماع وغيرهم ، وهى ليست غير مجلد واحد من مجلدات « كتاب العِبَر » ، السبعة ، ولكنها تُعَدُّ من أهم أثاره وأشهرها ، فهى تحتوى على مضمون علم الاجتماع الذى وضعه ، وسبق فى إنشائه علماء الاجتماع كافةً ، كما تحتوى على تجديده لعلم التاريخ ، وعلم النفس التربوى ، والفقه المالكى ، فقد فسر الظواهر الاجتماعية وقنَّنها ، وعَرَّفَ العمران البشرى والعمران البدوى ، ونُظم الحكم ، ونشأة المدن ، والتجمع الإنسانى ،

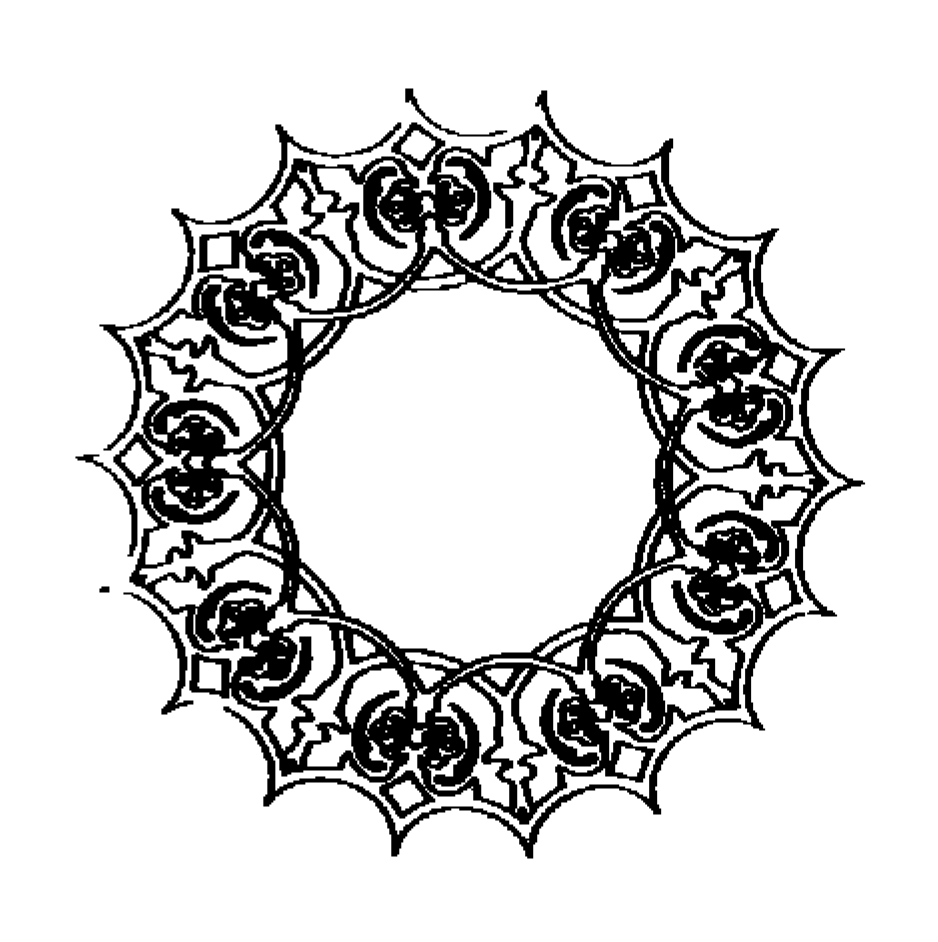
ووجوه العيش والحِرف والمهن ، والأحوال الشخصية ، والظواهر الاجتماعية بشكل عام ، وربط بين الفرد والمجتمع ، وبين الواقع والبيئة ، ووضع أسس النقد التاريخى ، كما يقرر ذلك المؤرخ الإنجليزى « هيرتشو » الذى يعترف بأن ابن خلدون هو مجدد علم التاريخ بمنهجه العلمى الحديث ، الذى يبحث فى وقائع الزمان ، وتوضيح فكرة الزمان والمكان ، وصلة الإنسان بهما ، ثم كتابة « تاريخ التاريخ » بحيث يحمل الواقعة من إطارها الجزئى إلى إطارها الكلى ، ومن غمار الواقعة فى ذاتها إلى الواقعة فى إطار الزمان والمكان ، حيث تحكم مسيرة الإنسان من صنعه ، ولكنها فوق طاقته وإدراكه .

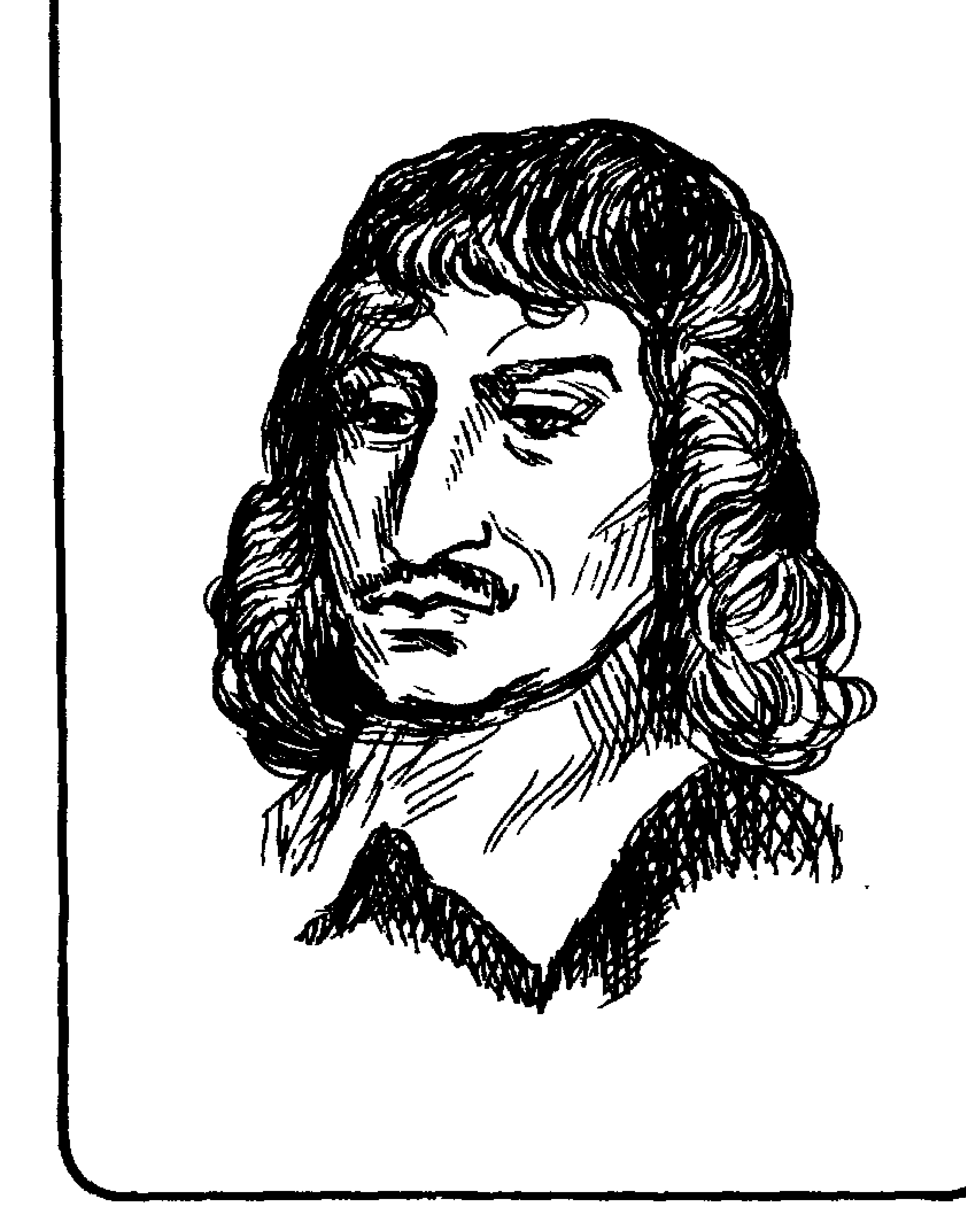
والمؤرخ الفذ هو من ينفذ ببصيرته إلى جوهر التاريخ ، كما فعل « ابن خلدون » ، ففاق أرسطو وأفلاطون وسان أوغسطين فى هذا المجال ، وحق له أن يكون ظاهرة سابقة لعصرها ، وهذا ما دعا عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين إلى تحضير رسالته عام ١٩١٧ فى باريس عن منهج ابن خلدون ، حيث قارن بينه وبين الفيلسوف « ديكارت » . كما تقدم عميد آداب السوربون « جورج دانى » عام ١٩٤٩ برسالة متميزة عن ابن خلدون « واضع علم الاجتماع ومجدد علم التاريخ » . أما الفيلسوف المعاصر « روجيه جارودى »

فقد أكد أنه أَبْقَى من « مونتسيكو » فكرًا وفلسفة ، برغم التشابه الكبير بين العالِمَيْن الفَذَّيْنِ .

وفضلا عن علوم الاجتماع والتاريخ والنفس ، برز « ابن خلدون » فى تجديد أسلوب الكتابة العربية ومفردات اللغة ، وفى تجديد « فن الأوتوبيو جرافيا » أو ترجمة المؤلف لحياته ، وفى التفقه فى علوم الحديث والفقه المالكى .

والغريب حقًّا أن عبقريةَ « ابن خلدون » المبكرة لم يَعُقْ نُمُوَّهَا وتألُّقَهَا وازدهارهَا اضطرابُ حياته الشخصية والأُسَرِيَّة .





ديكارت
وفلسفة الشك

١٥٩٦ - ١٦٥٠

ديكــارت وفلسفـة الشـــك
(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

فى آخر مارس عام ١٥٩٦ ولد رينيه ديكارت بفرنسا لأب كان يعمل بالسلك القضائى ، وأمٍّ تُوفيت بعد مولده بسنة واحدة .. درس الأدب والعلوم الرياضية والقانون وتفسير الأحلام ، ولكنه اهتم أكثر بالفلسفة ، وكانت له آراء فلسفية عميقة فى الوجود كله بصفة عامة ، والوجود الإنسانى بصفة خاصة خلال رحلته الفكرية الطويلة المتوسطة العمر (توفى فى ١١ فبراير ١٦٥٠) من الشك إلى اليقين ، ومن النفس إلى الله ، ومن الله إلى العالم ، مستهدفاً الإنسان دائماً ، والمنهج والعلم ، وما وراء العلم .

أبرز كتب « ديكارت » عنوانه « المقال عن المنهج » . والمنهج الديكارتى هو أصل المعرفة ، أما جوهر المنهج ففى

التحليل والتركيب ، أى التبسيط والترتيب ، والاستدلال أو الاستنتاج المتعلق بالبصيرة والتهيؤ .. أما البصيرة فتصدر عن عقل متحرر من سلطان الحس والخيال والمعارف السابقة مهما كانت يقينة ، وأما التهيؤ فيتم بتجنب السرعة والتهور والتحلى بالصبر والأناة .. المنهج إذن هو أساس العلم ، وبالتحديد علم الطبيعة والهندسة التحليلية .

« أنا أفكر إذَنْ أنا موجود » تلك هى الحقيقة التى توصل إليها « ديكارت » بعد « تأملاته » فى الكون والإنسان سالكاً طريق الشك ، الشك فى كل شىء ، لكى يبدأ من الصفر أو اللاشىء لينتهى إلى اليقين ، اليقين الذى يقرره علم الطبيعة ، حيث لاوجود من عدم ، ولا موجود إلى عدم .. فالإنسان - ككل شىء - موجود ، أوجده الخالق ، ولأنه وجد فلا يمكن أن يفنى حتى بالموت ، أو برغم الموت ، فالجوهر هو أصل الوجود ، والجوهر لايفنى .. أما الخالق فهو الله ، الكائن الكامل الأزلى ، اللامتناهى القادر ، وهو أصل الوجود وسبب الوجود معاً .

الله إذن خير ، وطالما أنه خير فلايمكن أن تدعو أفعاله إلى الشك ، مثلما تدعو إلى ذلك أفعال الشيطان ، وإن كان هو الآخر - شأنه شأن كل شىء فى الوجود - من خَلْقِ الله .

وهكذا يوسع « ديكارت » من دائرة استخدامه للتفكير ،

فالشيء الذى يفكر هو الذى يشك ويفهم ويتصور ويؤكد وينكر ويريد ويتخيل ويشعر .. فإذا توقفنا عند « الشعور » وجدنا أنه شكل من أشكال التفكير ، كما يحدث فى الأحلام ، ذلك أن التفكير الذى هو ماهية الذهن ، يجعل الذهن فى حاجة إلى أن يفكر دائماً ، حتى أثناء النوم العميق ، وحتى لو لم تكن أفكارًا إرادية تماماً .

وفيما عدا ذلك يقسم « ديكارت » الأفكار - التى تشمل إدراكات الحواس - إلى ثلاثة أنواع مختلفة :

١ - الأفكار الفِطْرِيَّة .
٢ - الأفكار المُكْتَسَبة .
٣ - الأفكار المُبْتَكَرة .

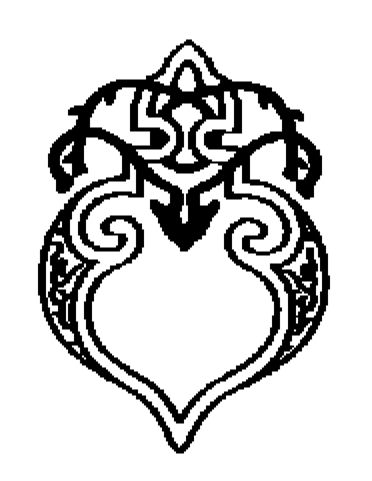
وبرغم مخالفة « ديكارت » لفلسفة « أرسطو » فإنه قد استعان بمنطقه .. فهو يؤمن بأن الإنسان المخلوق هو صورة الله الخالق ، وبما أن الله قادر فإن الإنسان قادر أيضاً ، وإن كانت قدرته محدودة بالنسبة لقدرة الله المطلقة .. وهو على هذا يملك قدرة الإدراك والتصور ، كما يملك القدرة على القبول والرفض .. يدرك الكون أو العالم ويتصوره ، ويقبل الظواهر الطبيعية أو يرفضها .. فالله قد خلق العالم خلقاً مستمرًّا ولم يخلقه شيئاً فشيئاً ، بل خلقه على الصورة الأزلية ، بما فى ذلك ما كان وما سيكون .

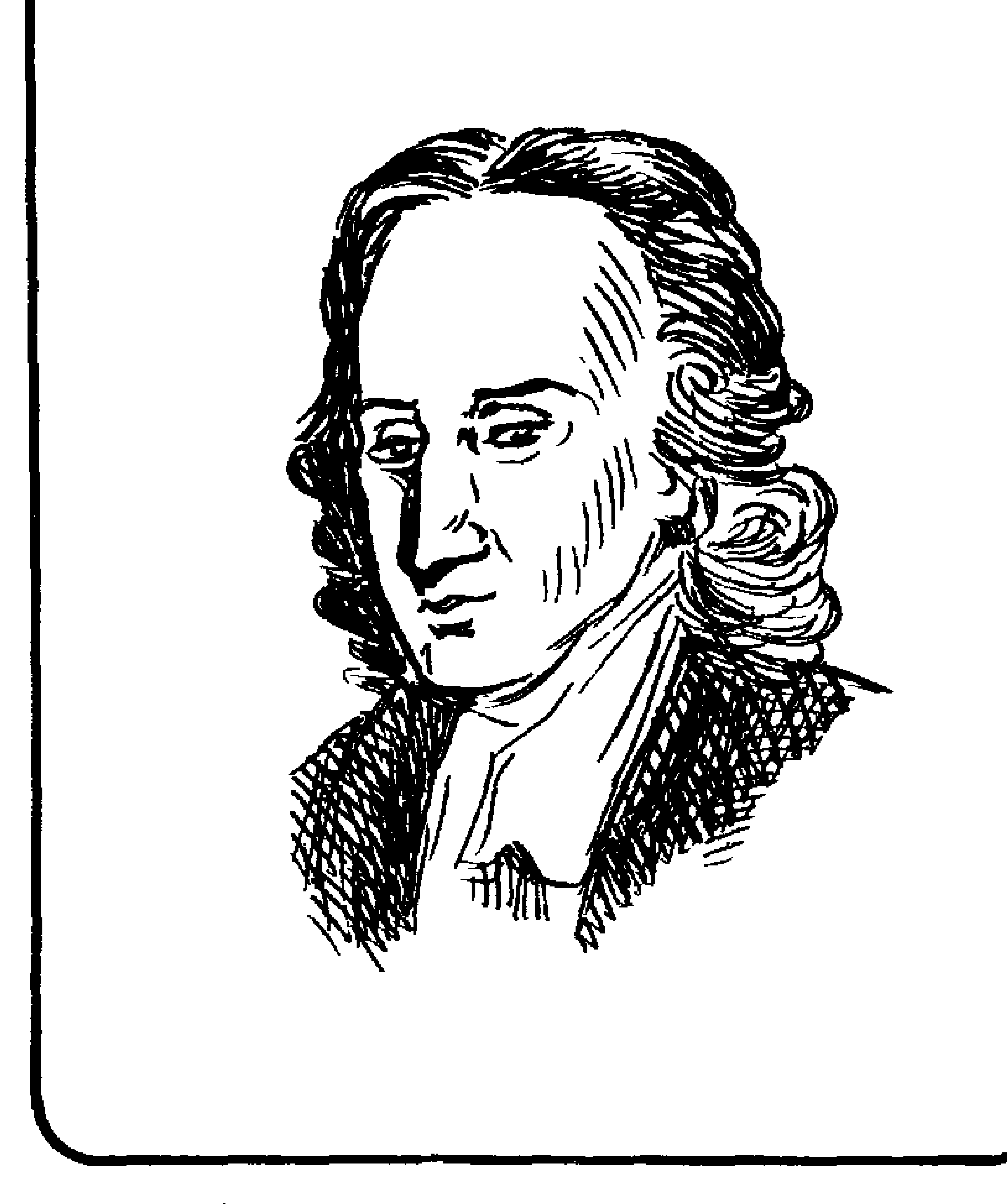
الإنسان نفس وجسم ، فإذا كان الجسم يعيش بالغذاء

ويستقيم بالوقاية أو بالعلاج فإن النفس تعيش بالانفعال .. والانفعالات الرئيسية ستة : التعجب ، والحب ، والبغض ، والفرح ، والحزن ، والرغبة .

وعلم الأخلاق يستهدف السيادة على الانفعالات أو التحكم فيها بحيث يمكن النفس أن تميز بين ما ينبغى وما لا ينبغى ، وبحيث تَمْنَح بقدر وتَمْنَع بقدر ، وبقدر الإرادة المتوفرة والحرية المتاحة ، تحقيقاً لاتحاد النفس بالجسم ، وتحقيقاً للسعادة فى نهاية الأمر ، وهذا ما شرحه « ديكارت » فى كتابه « انفعالات النفس » .

ومع هذا كله لم يجد « ديكارت » مفرًّا من الإذعان لقضاء الله .. وقد كان مؤمناً بذلك ، راضيًا به ، سعيدًا له .





بسكال وفلسفة العلم

١٦٢٣ - ١٦٦٢

بسكـــال وفلسفــة العلـــم
(١٦٢٣ ـــ ١٦٦٢)

ولد « بلازايتيين بسكال » فى التاسع عشر من يونية عام ١٦٢٣ بوسط فرنسا ، لأب قاض وأم بورجوازية .. وانتلقت الأسرة إلى باريس حيث تتلمذ « بلاز » على والده وهو بعد فى الثامنة من عمره ، وإن علم نفسه بنفسه ـــ دون أن يلتحق بمدارس ـــ بادئاً باللغات ، وخاصة اليونانية واللاتينية ، ثم الرياضيات التى تفوق فى كشف أسرارها ورموزها ، حتى أنه توصل – وهو بعد فى الحادية عشرة – إلى تفسير لطبيعة الأصوات .. واهتم بدراسة الفلسفة والأخلاق وعلم النفس وهو بعد فى الرابعة عشرة .. وعندما بلغ السادسة عشرة كان قد نبغ فى الهندسة ووضع مقاله « فى

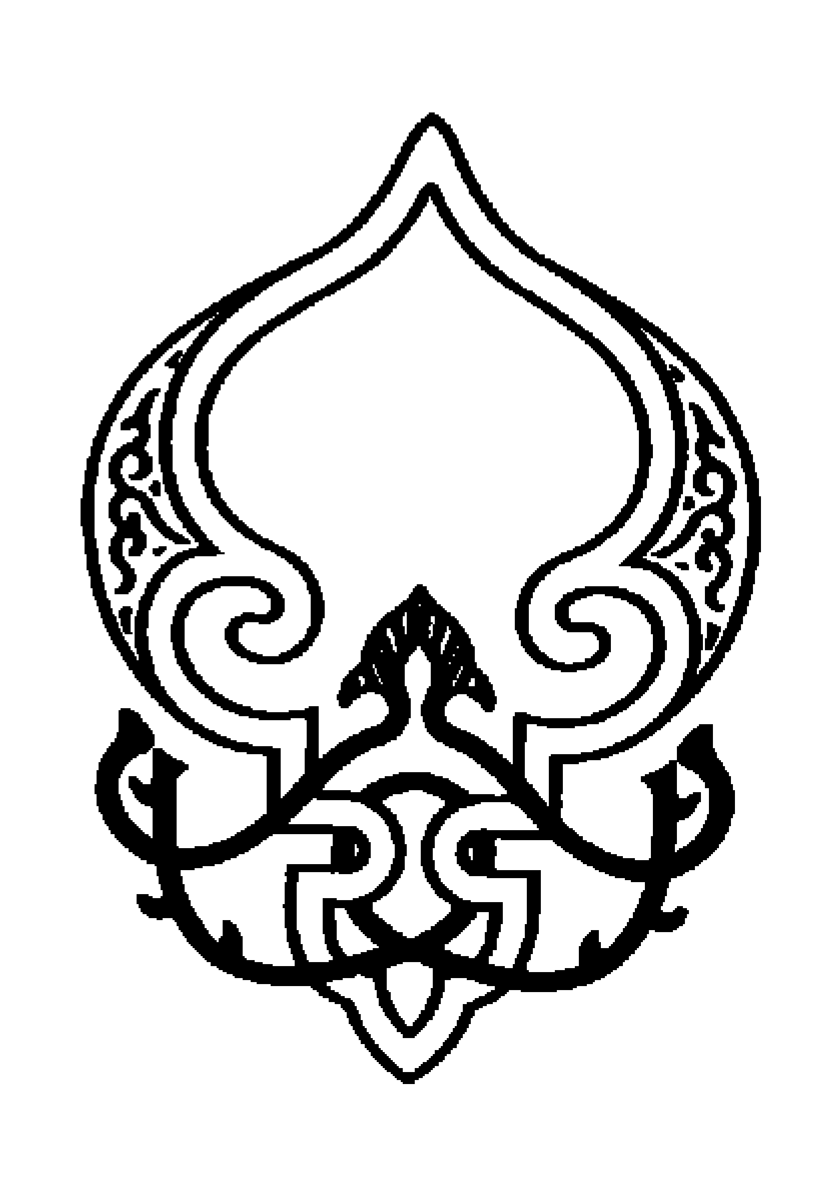
المخروطات » مخالفاً به منهج « ديكارت » الذى استنكر جسارة « بسكال » وأنكر عبقريته المبكرة التى لم تمتد طويلاً ، فقد توفى فى الثامن عشر من أغسطس عام ١٦٦٢ قبل أن يبلغ الأربعين ..

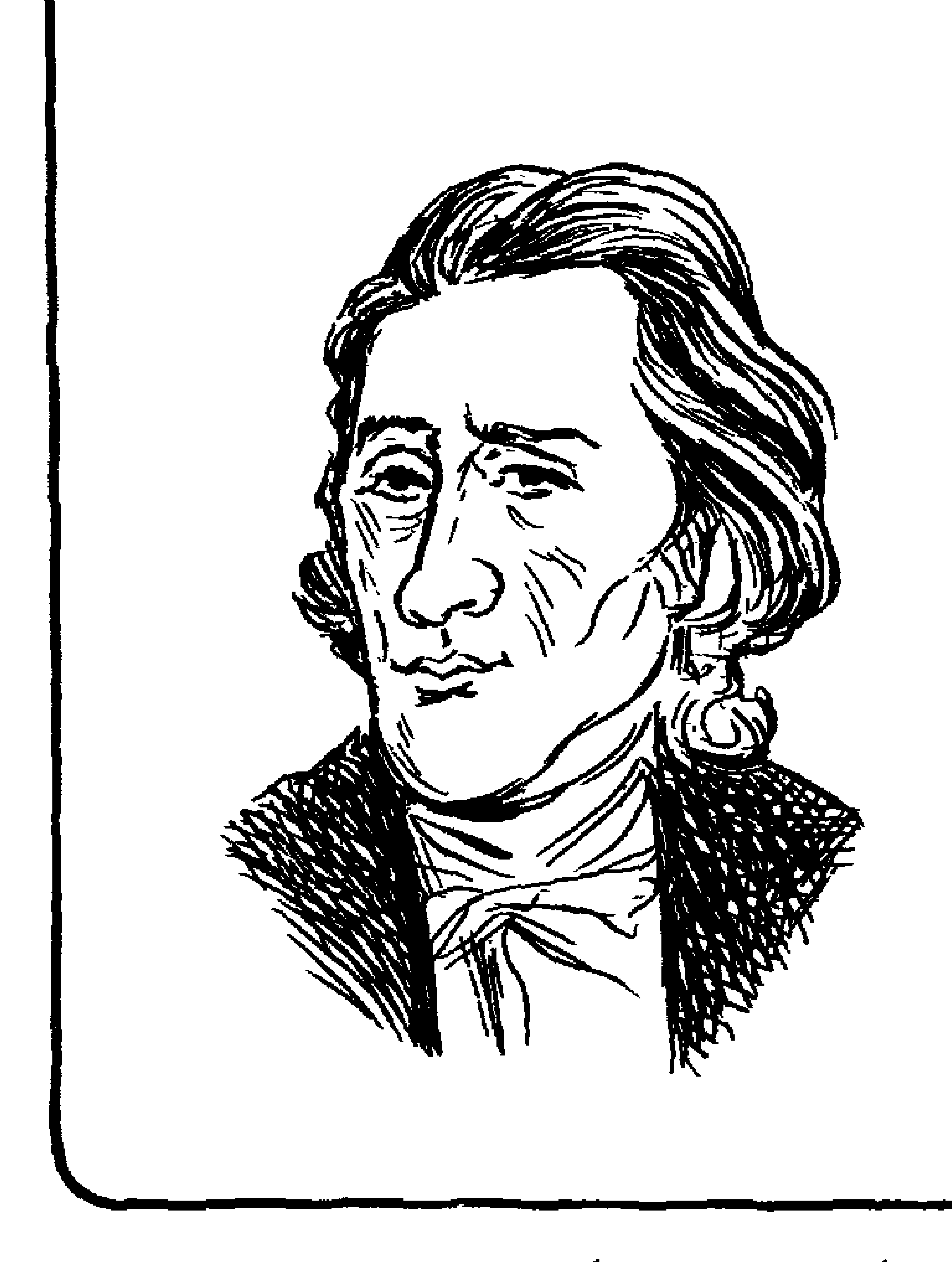
فإذا كان « ديكارت » قد سعى إلى علم يجعل من الإنسان سيدًا على الطبيعة ومسخرًا لها فإن « بسكال » قد نجح فى تحويل العلم إلى آلة ، لأن الإنسان – فى تقديره – آلة بقدر ما هو عقل .. ولذلك اكتشف « بسكال » الآلة الحسابية ، وإن جاءت على عيوبها – وبعد كل هذه السنوات – فتحاً لعالم « الآلات الحاسبة » ، كذلك اكتشف « المثلث الحسابى » الذى يربط بين الحساب والهندسة .. أما فى « علم الطبيعة » فقد عنى « بسكال » بالتجريب والتطبيق ، وخرج بدراسات متميزة عن ثقل الهواء وتوازن السوائل و« الخلاء » مركزًا دائمًا على « ظاهرة الضغط الجوى » أو « الظاهرة البارومترية » .. كذلك ربط بين مبدأ توازن السوائل ومبدأ القوى الميكانيكية وَصِلَتها بالمسافات .

شكلت « خواطر » بسكال التى أخذ يُدَوِّنها خلال سنوات مرضه الأخيرة – والتى ظهرت فى كتاب بعد وفاته

عن تسعة وثلاثين عاماً فى أغسطس عام ١٦٦٢ – دفاعاً عن الدين ، ودعوة للإيمان ، من منطلق اليقين الرياضى والعدالة الإلهية ، والمحبة الصوفية ، بعد أن قسم العظمة إلى مراتب ثلاث : عظمة المادة ، كما عند الملوك والقادة ، وعظمة الحس والعقل كما عند الفلاسفة والعلماء ، وعظمة الحب والبصيرة ، كما عند القديسين والأولياء .. وكان « بسكال » قد اتصل بجماعة « بور روايال » وفلاسفتها : « سان سيران » ، و« جاتسنيوس » و« أرنو » واعتنق مبادئ هذه الجماعة ، وعمل على نشرها والتنظير لها فى « الخطابات الريفية » ، وأبرزها « أن الدنيا رمز للآخرة ، وأن الحياة رمز للروح ، وأن كل شيء من صنع الله وحده ، وأن الإنسان أثر من آثار الله ، ودليل على وجوده وإرادته وخلوده » .. وقد حاول « بسكال » مستمدًّا رؤيته من « القديس أوغسطين » الرد على سؤال الإنسان الخالد « ما الإنسان ؟ » فعرفه بأنه « رغبة أو نزعة إلى السعادة » فإذا كان هو مصدر هذه النزعة ، فإن الله هو غايتها ، وإذا كانت الحياة الدنيا هى غاية الإنسان الأولى فإن غايته الأخيرة لابد أن تكون الحياة بعد الموت أو الخلود – وليس الفناء – تشبهاً بالله ، ورغبة فى الاتصال والاتحاد به بعد معرفته ، وصولاً إلى السعادة الأبدية .. ولايتحقق ذلك إلا عن طريق الدين أو الإيمان ، وباتحاده بالفلسفة أو بالبحث الفلسفى .

وَوَحَّد « بسكال » بين العلم والإيمان ، فأكد أن « اللامتناهى » مبدأ سلبى ، فى العلم ، كما أكد على أن الحب هو مصدر الإيمان ، وهو مفتاح المشكلات الإنسانية كلها .. أو ليس الله فى جوهره « محبة » ؟!





لـــوك..
والفلسفة الانسانية

١٦٣٢ - ١٧٠٤

لوك .. والفلسفة الإنسانية
(١٦٣٢ - ١٧٠٤)

على الرغم من تلقيه التعاليم الدينية الأرثوذكسية ، والدراسات الفلسفية الكلاسيكية ، حتى نال درجة الماجستير ، وفاز بمنصب تدريس هام - على الرغم من ذلك ، فإنه عاد إلى صفوف الطلبة بإرادته لدراسة الطب على نفقته ، والاطلاع على الكتب العلمية ، وخاصة فى مجال الطبيعة والكيمياء .

واهتم جون لوك - المولود فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٦٣٢ بمدينة ونجتون ، بولاية سومرست البريطانية ، لأب من المحامين المغمورين - بالعمل الوطنى العام ، حتى شغل العديد من المناصب السياسية التى جعلت منه فى نهاية المطاف شخصية قومية مرموقة .. ومع هذا لجأ

إلى هولندا وتفرغ للفكر والكتابة خمس سنوات ، هى التى شهدت مولد نظرياته الفلسفية جميعها ، والتى انصبت على حرية الإنسان وحياته الاجتماعية ، كما ظهرت فى أهم مؤلفاته « مقال فى العقل الإنسانى » وفى مؤلفاته الأخرى « أفكار عن التربية » ، و « قيادة العقل الإنسانى » ، و« روح التسامح » ، و« الحرية السياسية » و« الحرية فى الدين » .

وانقطع لوك للبحث فى أصل المعرفة الإنسانية ويقينها ومداها ، كما حدد أسس الاعتقاد والرأى والاتفاق ودرجاتها .. وكان أول من طبق الاتجاه التجريبى والمنهج العلمى فى الفلسفة ، ولعب دورًا مؤثرًا فى حركة التحرير الأوربية ، وضحت ملامحه وظهرت نتائجه بعد ذلك .. فأخذ عنه روسو نظرية « العقد الاجتماعى » واستمد منه مونتسكيو فكرة فصل السلطات ، وآمن بعده فولتير بمبدأ الحرية ، وقد امتد تأثيره إلى الثورة الأمريكية حين نادى جيفرسون بالاستقلال والمساواة والديمقراطية .

وتمر المعرفة عند لوك بمراحل ثلاث : الإدراك الحَدْسى ، ثم الإدراك الحِسِّى ، ثم الإدراك اليقينى ، وهو إدراك يبدأ بالجزئيات وينتهى إلى الكليات ، على عكس ما كان سائدًا ، بحيث تعتمد المعرفة على العقل والتحليل والتجريب ، دون أن تقتصر على الفطرة والفطنة وحدهما .

أما الإدراك الحَدْسى فيؤدى إلى المعرفة بالوجود الذاتى ،

وأما الإدراك الحسى فيقود إلى المعرفة بوجود الأشياء ، وأما الإدراك اليقينى فهو الطريق إلى المعرفة بوجود الله ، وهذا على العكس أيضاً مما كان سائدًا .

وقد تركزت آراء لوك السياسية فى تقسيم السلطة المطلقة إلى ثلاث سلطات ، هى : السلطة التشريعية التى يقودها ممثلو الشعب المنتخبون ، والسلطة التنفيذية التى تتولى تنفيذ القوانين الإدارية والقضائية ، والسلطة الفيدرالية التى تمثل الحكومة المنسقة بين السلطتين السابقتين .

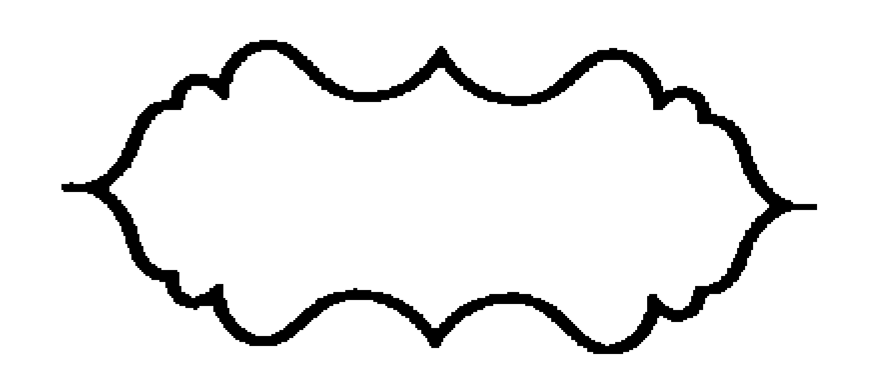
وتركزت آراء « لوك » التربوية فى حرية الفكر ، واستقلال التعليم العام عن التعاليم الدينية ، وإضافة عنصر الأخلاق إلى المواد النظرية والعلمية القائمة ، والاهتمام بتربية الأجسام إلى جانب تربية العقول ، وربط العلوم المختلفة بالحياة العملية .

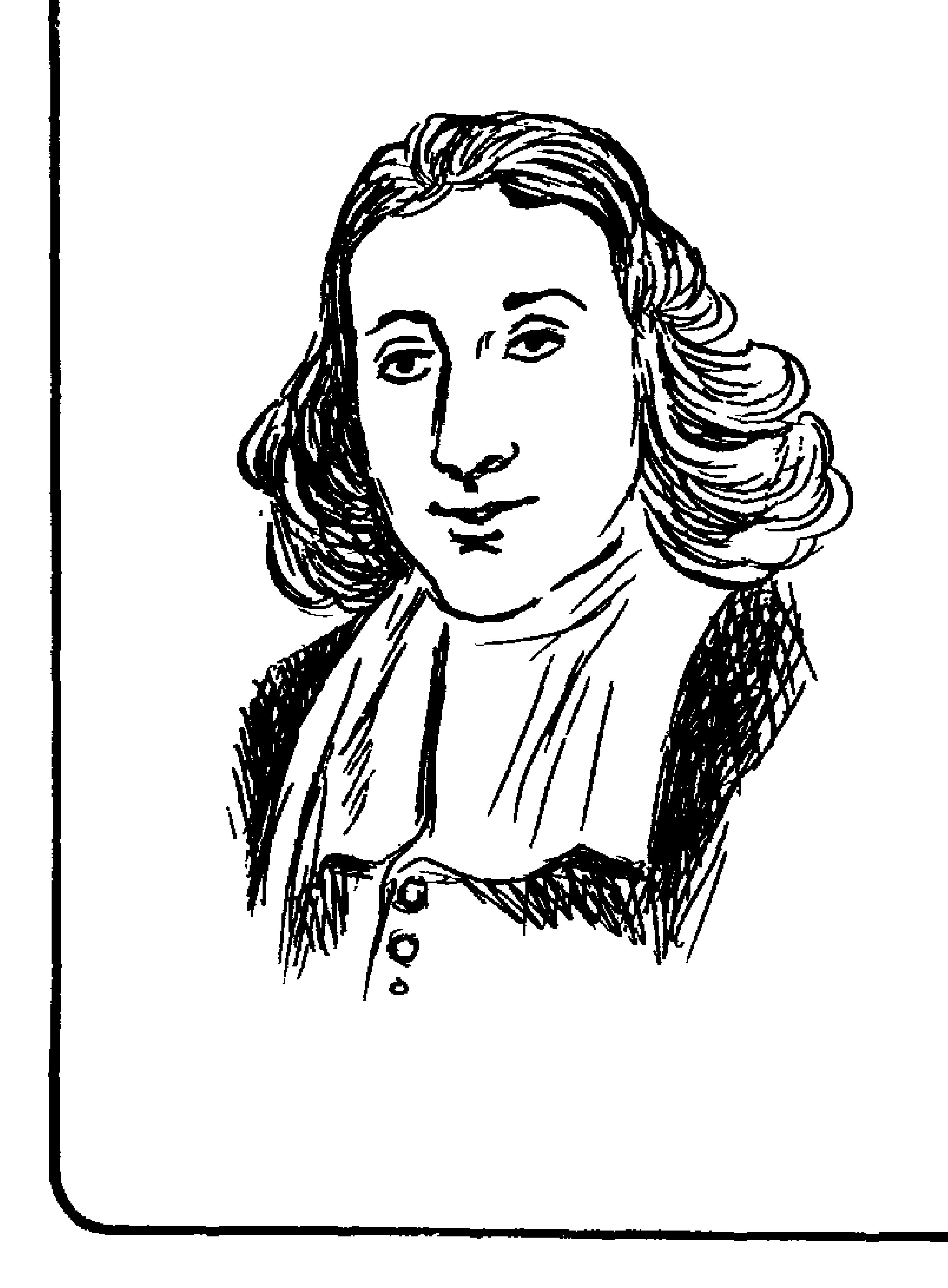
وتركزت آراء « لوك » حول التسامح فى حرية العقيدة الدينية بلاتخويف أو اضطهاد ، حتى لايتحول الدين – أى دين – إلى سلطة فى أيدى رجال الدين أو رجال الدولة على حد سواء .

ومع هذا استثنى من تسامحه ، هؤلاء الذين ينبغى تقييد حريتهم فى الاختيار ، وهم الملحدون ، والخاضعون للسلطات ، وغير المتسامحين مع غيرهم .

وعندما يربط « لوك » بين الأفكار المجردة والواقع الحى ، يفرق بين الأفكار الحقيقية ، والأفكار الوهمية من ناحية ، وبين الأفكار الكاملة والأفكار الناقصة من ناحية أخرى ، وبين الأفكار الصادقة والأفكار الباطلة من ناحية أخيرة .

وأخيرًا توفى « جون لوك » – بعد أن ساءت صحته برغم اعتكافه فى الريف – يوم الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٧٠٤ ، عن اثنين وسبعين عاماً .





سبينوزا
والفلسفة الاخلاقية

١٦٣٢ - ١٦٧٧

سبينوزا والفلسفة الأخلاقية
(١٦٣٢ - ١٦٧٧)

ولد « بندكت دو سبينوزا » فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٦٣٢ بالعاصمة أمستردام سليل أسرة أسبانية عاشت فى البرتغال ، ثم فرت إلى هولندا فى نهاية القرن السادس عشر ، هرباً من محاكم التفتيش . رحل « سبينوزا » إلى لاهاى ليعمل بصناعة شحذ وصقل العدسات عام ١٦٦٣ ، ولكنه ألف فى الوقت نفسه أول كتبه « رسالة موجزة فى الله والإنسان وسعادته » ثم « رسالة فى إصلاح العقل » و« المبادىء الفلسفية لديكارت » و« التأملات الميتافيزيقية » .

حرمه اليهود برغم تمسكه بدينهم من الانتماء إليهم ، وفى الوقت نفسه مقته المسيحيون مقتاً شديدًا برغم تحمسه

لأخلاقيات دينهم .. واتهمه أصحاب العقيدة فى كلا الدينين بالكفر والإلحاد برغم فلسفته الأخلاقية التى تقوم كاملة على فكرة الله .

وعاش « سبينوزا » حياة بسيطة هادئة ، فلم يحب المال ، ولا المناصب ، وكانت مطالبه قليلة وعادية . وبسبب آرائه فى الأمور الدينية والسياسية كادت تعاديه الحكومة الإيرلندية لولا ليبراليتها المعروفة .

وتوفى « سبينوزا » وهو فى الخامسة والأربعين من عمره متأثرًا بمرضه الرئوى القاسى .

كتب « سبينوزا » قبل مؤلفه الرئيسى « الأخلاق » الذى نشر بعد رحيله كتابين هما : « رسالة فى السياسة اللاهوتية » ، و« رسالة فى السياسة » ، وفيهما يطالب بخضوع السلطة الدينية للسلطة السياسية ، منادياً بحرية الرأى فى جميع الأحوال .

أما « أخلاق » سبينوزا فلاتعترف بغير جوهر واحدٍ ، هو الله ، خالق الذهن والمادة ، والقادر وحده على إفنائهما ، لأنه اللامتناهي المطلق ، وأعلى فضيلة للذهن هى أن يعرف الله ويحبه حبًّا عقليًّا عظيماً ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان فهم المرء لنفسه ولعواطفه كبيرًا . فالحب العقلى لله هو اتحاد الفكرة والعاطفة ، وليس شرطاً أن يسعى المرء إلى أن يحب الله مقابل

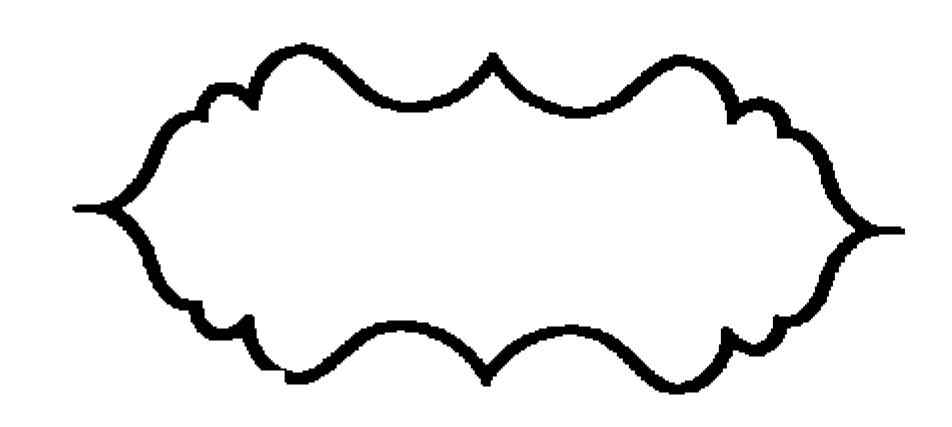
حبه له ، وهذا هو « إنكار الذات » إحدى ركائز فلسفة « سبينوزا » الأخلاقية .. إن حب الله هو الفضيلة ذاتها لأنه يؤدى إلى السعادة الروحية ، والإحساس بالنبل ، والقدرة الإنسانية .

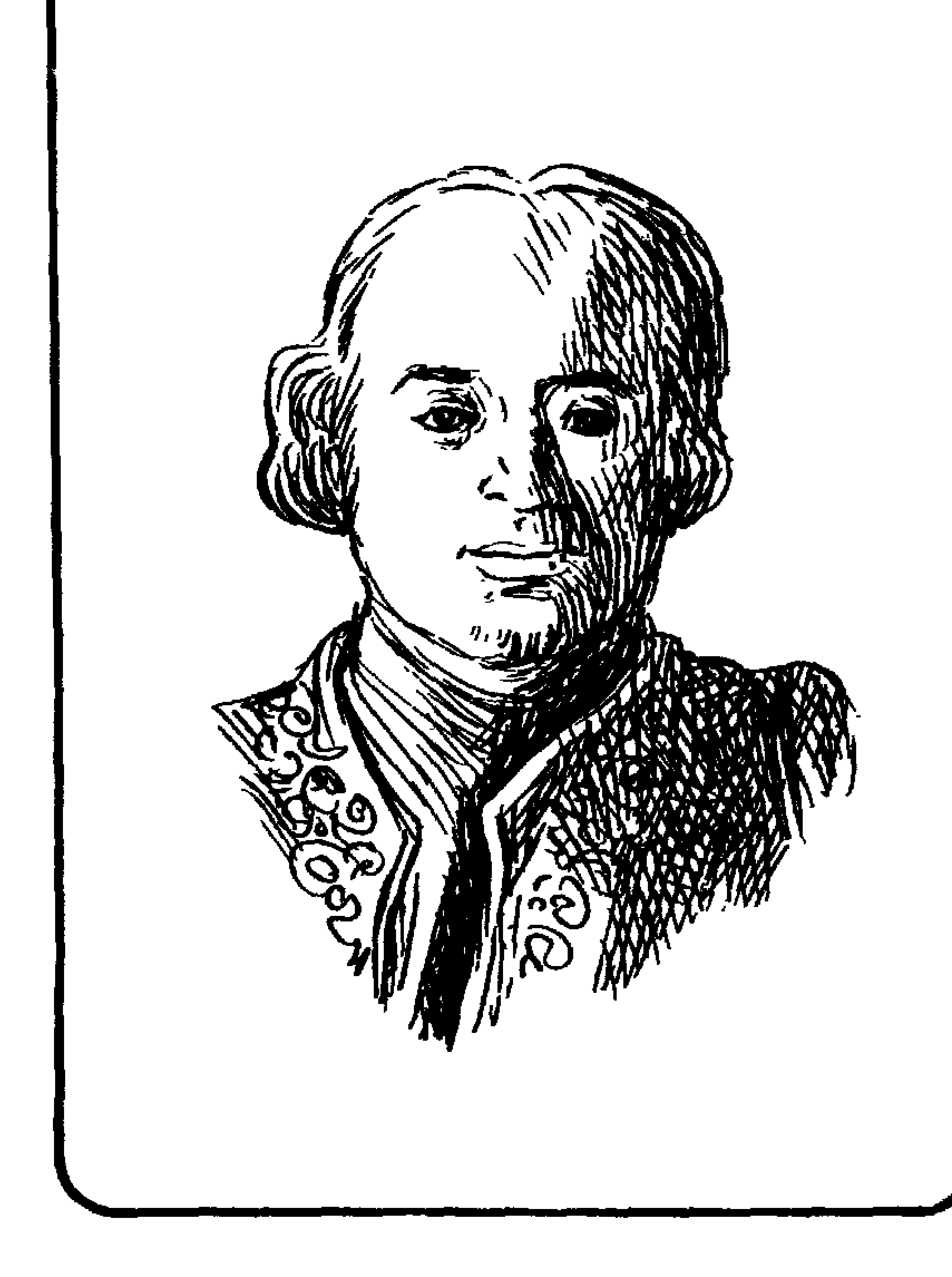
ومن الركائز الأخلاقية عند « سبينوزا » الحب الإنسانى الذى يتغلب على الكراهية ، فهو يعتقد أن الكراهية تتزايد حين تكون متبادلة ، ويمكن أن يقضى عليها الحب ، فالكراهية التى يقهرها الحب تتحول إلى حب ، وحينئذ يكون الحب أعظم لو لم تسبقه كراهية . وهو ينطلق فى هذا من المبدأ المسيحى « أحب أعداءك » ، فعنده أن الخطيئة أساسها الجهل ، ولذلك فالله – بحسب المبدأ المسيحى أيضاً – يدعونا لأن « نصفح عنهم ، لأنهم لايعرفون ما يفعلون » ذلك أن الحياة التى تسيطر عليها عاطفة واحدة هى حياة ضيقة لاتتصف بالحكمة .. أما المحنة الخاصة فلاينبغى أن يخلعها المرء على العالم كله ، لأن الكل أبقى من الفرد .

ومن ركائز الأخلاق عند « سبينوزا » نسبية الخير والشر ، فنحن نسمى خيرًا ما نعرف تمام المعرفة أنه نافع لنا ، وعلى ذلك فالإنسان الخَيِّرُ خَيِّرٌ بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فهو يعمل على أن يكون الآخرون أحرارًا وحكماء ، مراعياً فى ذلك أن الكراهية والنفور لايجديان فى معاملة الناس ، كما أنهما لايجديان فى علاقتنا مع الصخور والأحجار ، وهو يعلم أن

الشيء الوحيد الذى يستحق أن يسعى إليه هو المعرفة ، وأن تحصيلها فى صحبة الآخرين أفضل له من تحصيلها وهو منعزل .

ويرى « سبينوزا » أن العقيدة الدينية خير مادامت تعمل على الحياة الفاضلة ، وأن النظام الاجتماعى خير إذا حقق للمواطنين الأمن والأمان .. وطالما أن الناس يتفانون فى درجة الكمال ، كان لابد لبعضهم أن يطيعوا أولى الأمر منهم .. وهو مبدأ إسلامى نادى به « سبينوزا » لتكتمل فلسفته الأخلاقية التى تقوم على المبادئ الأخلاقية فى الأديان جميعاً دون تحيز أو تعصب ، لأن الهدف المبدئى والنهائى هو الحب ، حب الإنسان للإنسان ، وحب الإنسان لله .





هيوم..
والفلسفة الوضعية

١٧١١ - ١٧٧٦

هيوم .. والفلسفة الوضعية
(١٧١١ - ١٧٧٦)

فى أدنبرة بسكوتلندا ، توفى ديفيد هيوم ليلة الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٧٧٦ ، وكان قد ولد فى المدينة نفسها ليلة السادس والعشرين من أبريل عام ١٧١١ .

نشأ هيوم فى أسرة متوسطة ، وتلقى تعليماً متوسطاً ، ولكنه شغف بالأدب ، وشغل بالفلسفة منذ صباه الباكر ، حتى إنه أكمل فكره وَكَوَّنَ فلسفته قبيل بلوغه الخامسة والعشرين ، عندما انتهى من أول وأبرز مؤلفاته على الإطلاق « رسالة فى الطبيعة البشرية » وهو فى فرنسا ، وإن نَشَرَ أجزاءه الثلاثة فى إنجلترا .

لم يَلْقَ الكتاب على أهميته الرواج الذى لقيته الكتب التالية

عليه : « مقالات فى الأخلاق والسياسة » ، و« مناقشات سياسية » ، و« محاورات فى الديانة الطبيعية » ، و« تاريخ بريطانيا العظمى » ، و« حكم أسرة تيودور » ، و« من القيصر إلى هنرى السابع » .

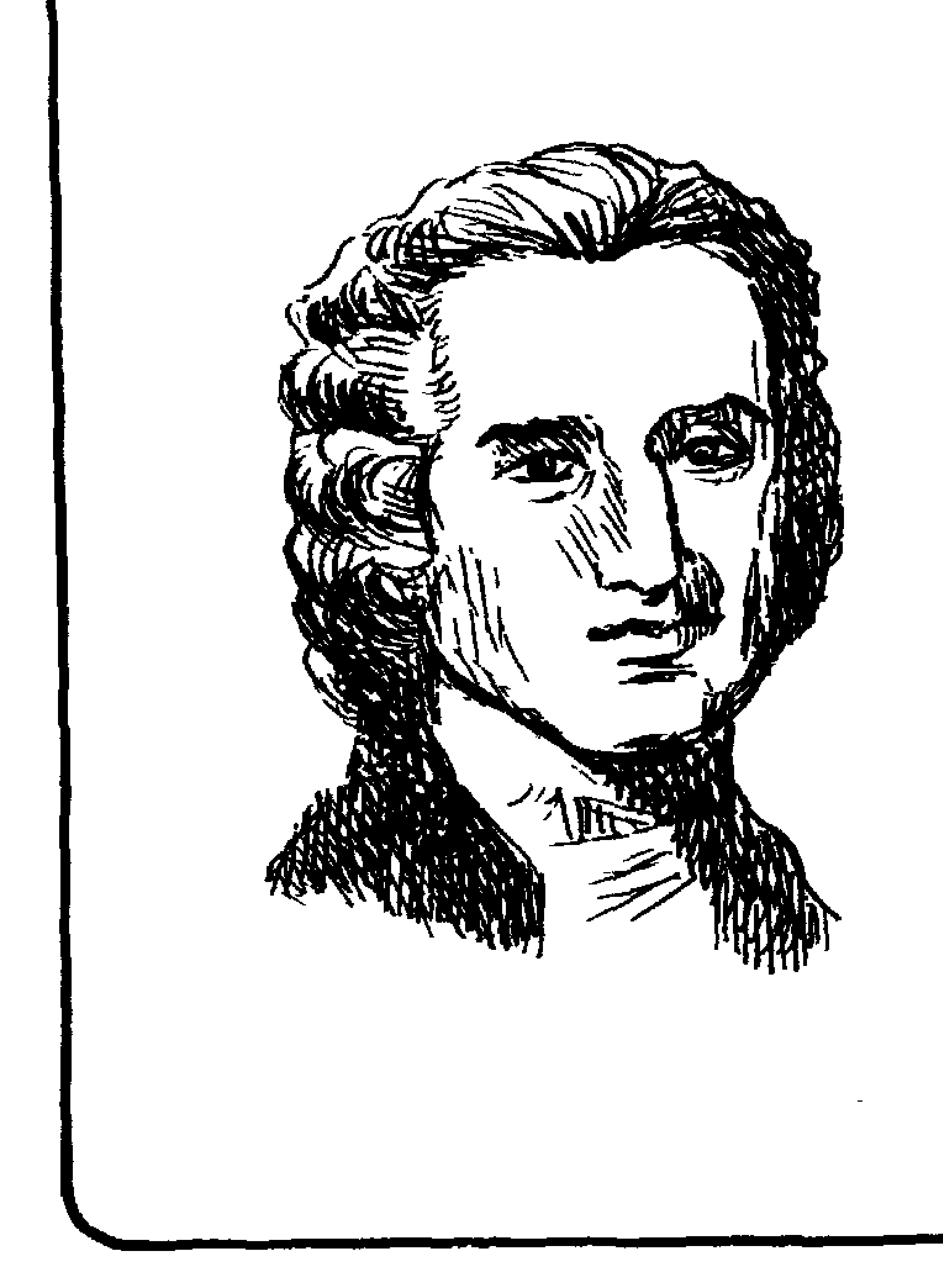
وقد أراد هيوم بكتابه هذا معالجة عيوب الفلسفات السابقة التى تقوم على الافتراضات غير اليقينية ، فوضع أسس العدد التجريبى أو عِلْم الإنسان ، من حيث الفهم أو العمر والانفعالات أو المشاعر والأخلاق والسلوك .. ويُعَرِّف الزمان بأنه الطريقة التى تحدث بها الإدراكات الحسية ، أما المكان فهو الطريقة التى ترتب وفقاً لها النقاط الملونة المحسوسة . ويتألف الاستدلال العقلى فى نظر هيوم من اكتشاف العلاقات ، وهذه العلاقات إما أن تكون بين أفكار أو مرتبطة فى الواقع بأشياء أخرى . وعلى هذا فإن البراهين الرياضية والاستدلالات التجريبية هى وحدها الواقعية ، وما عداها وَهْمٌ وسَفْسَطَة .. فإذا كانت البرهنة القاطعة مستحيلة ، فمن الممكن الاستدلال على سبيل الاحتمال ، والعلاقة التى تقوم عليها تلك الاستدلالات الاحتمالية هى علاقات العلة بالمعلول .

ويصل هيوم إلى القول بأن العقل والحس كليهما لاينتجان اعتقادنا فى الأشياء المادية ، مُقَلِّلاً بذلك من كفاءة العقل ،

ومبيناً أن الاعتقاد حالة نفسية ترجع إلى الغريزة ولاترجع إلى المنطق ، كما أن الانطباعات وخصائصها المحسوسة ، مثل اللون والدفء إنما تتوقف على إدراكنا الحسِّى لها ، ولايمكن أن يكون لها وجود مستقل .

ويرى هيوم أن العقل لايمكن أن يميز وحده بين الخير والشر ، لأنه لايؤثر على السلوك ، وهذه هى إضافته فى علم الأخلاق ، ويضيف رأيه فيما يتعلق بالتزامات العدالة كالوفاء بالوعود والولاء للدولة واحترام الملكية ، فيرى أنها تقوم على مواضعات اتفاقية تخلق التزاماً أخلاقيًّا يفرق بين الحق والباطل ويُغَلِّب العدل ، وهو تفسير ينتقد بشدة نظرية « العقد الاجتماعى » ، لأن الأخلاق تقوم فى نظر هيوم على المشاركة الوجدانية ، وهى دافع واهنٌ غير مضمون ، ولا هو متساوٍ لدى الجميع .

وقد تأثر بهيوم عدد من الفلاسفة فى مقدمتهم « عمانويل كانط » ، الذى اعترف بأن هيوم هو الذى أيقظه من سباته الدوجماطيقى ، أو جموده الاعتقادى .. كما يعترف الدكتور زكى نجيب محمود بأنه ينتمى إلى حركة هيوم الفلسفية ، تلك الحركة التى فتحت المجال عريضاً وعميقاً أمام التجريبيين العلميين المحدثين من فلاسفة هذا العصر ، وكل عصر .



روســـو
وفلسفة العـدالة

١٧١٢ - ١٧٧٨

روســو وفلسفـة العدالـة
(١٧١٢ - ١٧٧٨)

« الاعترافات . العقد الاجتماعى . إميل » تلك هى المؤلفات الضخمة التى اشتهر بها المفكر السويسرى – الفرنسى « جان جاك روسو » ، ولكنه مثل غيره من مفكرى عصره ، وخاصة فولتير . كتب أيضاً فى العلوم والفنون والآداب ، كتب « هيلويز ، وأصل عدم المساواة بين الناس ، والإنسكلوبيديا » وبحث فى الموسيقى الحديثة ، وحديث عن العلوم ، والفنون ، وإن اعتبر – دوناً عن غيره – هذه الفروع الثلاثة من المعرفة مفسدة للأخلاق ، وإضاعة للوقت والفضائل ، ودليلاً على شقاء الشعوب وكبريائها الفارغة ، ولذلك وجه دعوته للرجوع إلى الحالة الطبيعية للإنسان الأول ، وسط الطبيعة وفى أحضانها ، والنزوع عن الترف

المفسد ، حتى لو تمثل هذا الترف فى العلوم والفنون والآداب ، وهى دعوة سبقه إليها كل من « مونتسكيو » و « ماريفو » .

و « روسو » الذى ولد فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٧١٢ بجنيف متسبباً فى موت أمه ، توفى فى الثامن من يوليو عام ١٧٧٨ بباريس ، ولأنه من أصل فرنسى رحل إلى فرنسا ، واستقر بها ، ولمع فيها ، بعد أن عاش فى سويسرا بعيدًا عن والده حياة شريدة ، بدون أن يدخل مدرسة أو يلتحق بعمل أو يتعلم مهنة أو حرفة ، ولكنه كان يلتهم الكتب قراءة وتعليقاً .

ويهتم بدراسة الموسيقى استماعاً وتحليلاً ، ويلتحم بالطبيعة عشقاً وهياماً ، وهى العناصر الثلاثة التى كونت شخصيته ، وصقلت موهبته ، وجلت عبقريته ، فجعلت منه فيلسوف عصره ، ومفكر زمانه .

عاش « روسو » فى الطبيعة وبالطبيعة وللطبيعة ، زاهدًا فى حياة النعيم : مأكلها ، وملبسها ، ومسكنها ، مُعبرًا عن أحاسيسه ومشاعره ، معتبرًا نفسه مركز الكون وبداية الوجود ، وجاعلاً من العقل خادماً متواضعاً للشعور ، فالخيال عنده يسمو على كل شىء .

وهكذا كفر بكلاسيكية القرن السابع عشر ليبشر

بالرومانتيكية التى سادت القرن التاسع عشر ، وعمل على نشرها هوجو ، ودى فينى ، ودى موسيه ، كمذهب يعبر عن الذات ، وينطلق إلى الحرية من الحرية وبالحرية .

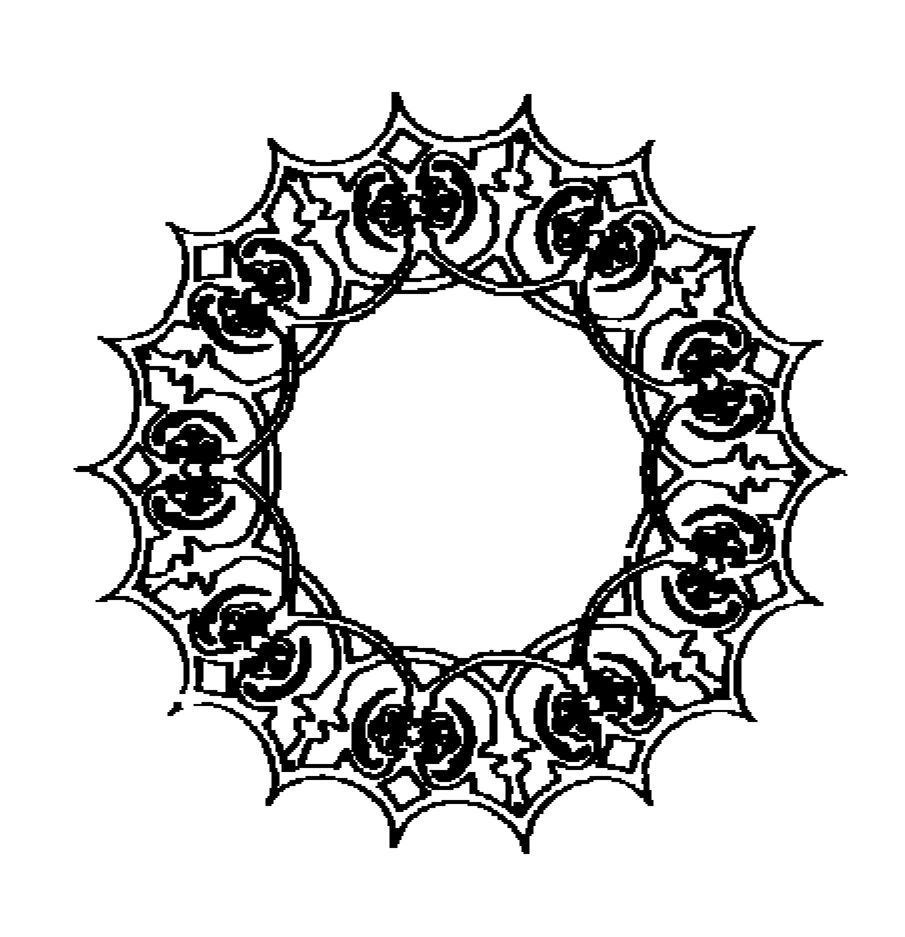
هذا المذهب الجديد طبقة « روسو » فى روايته « هيلويز الجديدة » التى ظهرت عام ١٧٦٠ فى ألف صفحة بعنوان خطابات عاشِقَيْنِ يقطنان مدينة صغيرة فى سفح جبال الألب ، فأحدثت ثورة فى الأدب الفرنسي خاصة ، والأدب الأوربى عامة مضموناً وأسلوباً .

وفى كتابه « إميل أو التربية » عنى بتربية الأطفال فى مدينته الفاضلة ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح الكبار وصلاحهم ، بادئاً بالمساواة بينهم وتعميق مفاهيم العدالة الاجتماعية ، انطلاقاً من العدالة الإنسانية ، وتأسيساً على العدل الإلهى ، ثم الوطن وغرس حبه فى نفوسهم ، لدرجة إرضاع الأطفال هذا الحب مع لبن الأم تمهيدًا لجعل العالم كله وطناً لهم جميعاً .

وكما أعلن « روسو » حقوق الطفل – جائزًا على المرأة – فى التربية ، يعلن كذلك حقوق الإنسان فى العقد الاجتماعى ، وأول حقوق الإنسان الحرية ، ثم المساواة القائمة على إزالة الفوارق الظالمة بين الناس ، ذلك أن الملكية الخاصة والترف والإمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات المكدسة التى تقع على رءوس ملايين الفقراء . أما قواعد الإصلاح التى

وضعها لإسعاد البشرية فترمى إلى هدم القديم المتهالك ، وإقامة نظام جديد يستلهم الطبيعة والعيش فى ظلها على طريقة القبائل الفطرية الأولى .

ولقد بلغ الأثر الذى تركته مؤلفاته فى النفس ذروته – فكرًا مُتَّقِدًا وأسلوباً وجدانيًّا – فى الاعترافات ، أصدق وَأَجْرَأ ما كتب فى هذا اللون من المذكرات ، أكثر حتى من « مالرو » و « سارتر » و« طه حسين » و « الحكيم » .





سان سيمون..
والفلسفة الاجتماعية

١٧٦٠ - ١٨٢٥

سان سيمون .. والفلسفة الاجتماعية
(١٧٦٠ - ١٨٢٥)

على الرغم من كونه ابناً للكونت ، وسليلاً لشارلمان وتلميذًا لدالمبير ، فإنه اشترك فى حرب التحرير الأمريكية ، وانتخب رئيساً لاتحاد الفلاحين ، وتنازل عن لقب الكونت ، وعمل مندوباً للبنوك ، ثم أقام مؤسسة للنقل الخاص حتى وقع انقلاب سبتمبر ١٧٩٧ ضد الملكية ، فصفى أعماله التجارية وعاد إلى دراساته المتعمقة بالكلية الفنية ، دارساً للعلوم الطبيعية والرياضية ، وخاصة بعد أن اختلف هو ومدام دوشتال مع نابليون وسياسته .. فلما ضاق به الحال عمل مصححاً فى مطبعة ، وبائعاً فى مكتبة ، إلى أن أصدر مجلة « الصناعة » ، ثم مجلة « السياسى » مع سكرتيره « أوجست كونت » الذى أصبح فيما بعد فيلسوف علم الاجتماع

الأول ، والذى أفاد منه كثيرًا فى تكوين فلسفته الاجتماعية .

وتبرز فلسفة « سان سيمون » الإنسانية والاجتماعية من ثنايا أهم مؤلفاته « بحث فى علم الإنسان » حيث يرى أن التقدم العلمى هو السبيل لتحقيق سعادة الإنسان ، على أن يكون هذا التقدم نافعاً للمجتمع الإنسانى ، ملائماً لنظمه ، متكيفاً مع تقاليده ، متفقاً وقيمه .. كما يرى « فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » أن سعادة الإنسان تتمثل فى التطلع إلى المستقبل بالإفادة من سمات العصور السابقة ، وتحديد سمة العصر الحاضر .

إنه الفيلسوف الفرنسى « كلود هنرى دى سان سيمون » الذى فقد عينه اليمنى بعد أن حاول الانتحار بمسدسه ، نتيجة لفشل تنظيماته الاجتماعية الخاصة بالصناعة والطبقة العاملة والإقطاع الاقتصادى والدينى .. ولم تمض سنتان على هذه الواقعة حتى توفى « سان سيمون » بباريس ليلة التاسع عشر من مايو عام ١٨٢٥ ، وكان قد ولد بالعاصمة نفسها ليلة السابع عشر من أكتوبر عام ١٧٦٠ .

إن سمة عصره – القرن التاسع عشر – هى التنظيم ، بعد أن سيطر اللاهوت والفن والفكر والتحرر على العصور الماضية .. وهو إذ يهتم من الناحية الاقتصادية بجوهر الإنتاج ، إنما يتطلع إلى وضع القوة الإنتاجية فى المجتمع ، وتحديد نظام

الملكية الفردية والملكية الجماعية ، أى ملكية الدولة ، حتى لو أدى ذلك إلى مجموعة من التضحيات .

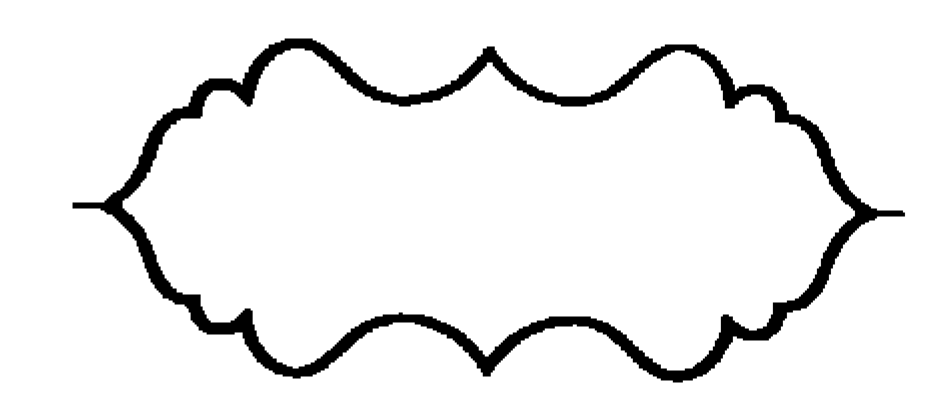
وعندما يبحث فى « تاريخ الإنسان » يقرر « سان سيمون » أن انتشار العلم والمعرفة هما إحدى السبل الفعالة فى تقارب الشعوب والمجتمعات وتوحيد الإنسانية كلها ، كما يقرر أن العلماء - كما يؤكد التاريخ - هم القادة فى أى مجتمع متطور .. فالفكر الإنسانى - ماديًّا وروحيًّا - هو الإسهام الحقيقى فى التقدم الحضارى .. فهو الذى أبرز علوم الفلك والطبيعة والكيمياء التى تطلبت قيام علم الإنسان ، هذا العلم الذى يستوجب تغييرًا ضروريًّا فى نظم السياسة والأخلاق والتعليم ، علماً بأن التقدم العلمى لن يؤدى إلى الظلم أو السيطرة أو قيام حكم استبدادى يعتمد على قوة العلوم ، كما جاء فى « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » .

ويؤيد سان سيمون فى « السياسى » نظام الطبقات فى المجتمع الواحد ، حتى لاتسود طبقة واحدة .. على أن تكون العدالة الاجتماعية هى الفاصل والفيصل بين هذه الطبقات ، وبحيث تأخذ كل طبقة المكانة التى تفرضها فوائدها ومكاسبها ومنجزاتها لصالح المجتمع بجميع طبقاته .

ويطالب فى « الصناعة » بإنشاء علم للحرية ، فالتعلق بالحرية وحده لايكفى .. وإنما علينا ، إذا أردنا أن نكون

أحرارًا ، أن نحصل على حريتنا ولاننتظر حتى تمنح لنا . وهذه الحرية تعتمد على الصناعة من حيث هى وسيلة وليست غاية ، على اعتبار أن الصانع هو كل من يعمل فى سبيل التقدم والاستقرار وزيادة الإنتاج ، فالعالم والزارع والتاجر والحرفى والمهنى والصحفى ، كلهم من الصُنَّاع .. فهم يشكلون الطبقة أو الطبقات المنتجة ، وتحسين أوضاعهم لايتحقق إلا بإلغاء الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات غير المنتجة .

ويبقى على العلماء والمفكرين والفنانين تعريف الطبقات الأكثر عددًا وجهدًا بدورها الاجتماعى والحضارى ، كما يبقى عليهم أيضاً المساهمة ، من خلال الاكتشافات والمخترعات والفنون والآداب والأفكار والآراء ، فى تهيئة المناخ الملائم والجو المبهج ، بعد طول حرمان ومعاناة ومكابدة ، من أجل حياة أنقى وأخصب وأفضل .





هيجل
وفلسفة الجمال

١٧٧٠ - ١٨٣١

هيجل وفلسفة الجمال
(١٧٧٠ - ١٨٣١)

فى السابع والعشرين من أغسطس ١٧٧٠ ولد « جورج فيلهيلم فريدريش هيجل » بمدينة شتوتجارت بألمانيا ، لأب محدود الثقافة .. وأشرفت الأم على تعليمه بالمدرسة اللاتينية التى نبغ فيها ، حتى أنه قرأ – وهو بعد فى السادسة عشرة – « أرسطو » و« شيشرون » و« يوربيدس » وترجم بعض مسرحيات « سوفوكليس » والتحق « هيجل » بالمعهد الدينى ، وأنفق فيه خمس سنوات ، ولم يقتنع فيها لا بالبروتستانتية ولا بالدراسات اللاهوتية .. ثم عين محاضرًا بجامعة « يينا » وأصدر مع الفيلسوف « شيلنج » الجريدة الفلسفية النقدية .. وقصفت الحملة الفرنسية المدينة عام ١٨٠٦ فغادرها « هيجل » آسفاً ، ولكنه عين بجامعة برلين ،

وظل ينشر فيها فلسفته ويعلمها للطلبة والأساتذة معاً ، حتى أصيب بمرض الكوليرا ، وتوفى فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٨٣١ بعد أن عاش نصف حياته فى نهاية القرن الثامن عشر ، وعاش نصفها الآخر فى بداية القرن التاسع عشر ، حياة مليئة بفكر هذا المفكر .

فبعد أن استخلص « هيجل » فى البداية « ظاهريات الروح » وبعد أن وضع « المنطق » فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، وبعد أن صاغ « أصول فلسفة القانون » نشر دروسه فى « تاريخ الفلسفة » و« فلسفة التاريخ » و« فلسفة الدين » و« فلسفة الجمال » .. بحيث يحتكم دائماً إلى العقل الذى يحكمه دائماً ، من خلال « الديالكتيك » أو الجدل فى حالاته الثلاث : الإثبات ، والنفى ، ونفى النفى .. ثم انتهى إلى مذهبه المثالى القائم على « الأخلاق » أو « علم الأخلاق » .

والأخلاق هى قبول الفرد التخلى عن كل شىء لكى يعيش فى ظل قوانين الأخلاق العرفية متى وأينما وجد ، طالما أنه عضو فى مجموع .. ذلك أن الأنا الإنسانية تتكون من انتمائها إلى المجموعة البشرية ، وهى جزء له إرادة ، ولكنه يذوب بإرادته فى الكل حتى يتوافق مع المصير الإنسانى كاملا .

وتاريخ الفلسفة - فى مذهب هيجل المثالى الأخلاقى - ليس مجموعة الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة للمفكرين

المختلفى النزعات ، ولكنه حلقة متصلة لإبانة كليات العقل ، ذلك أن العقل هو حاكم العالم وجوهره ، لأنه القوة اللامتناهية التى تحرك المادة اللامتناهية ..

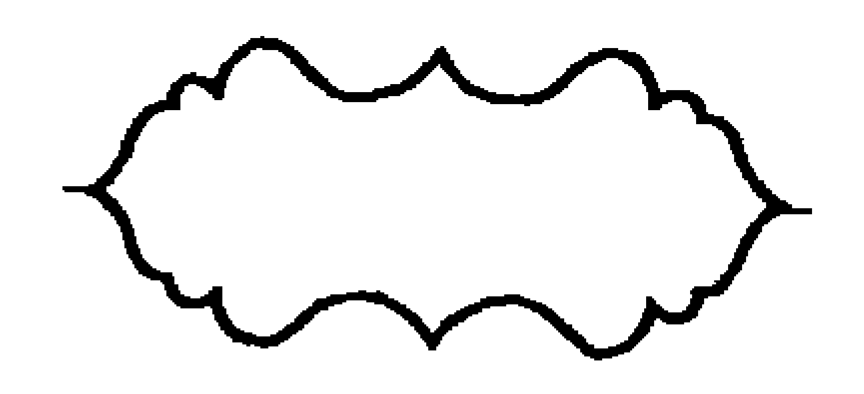
وهو بهذا يرتفع بالفلسفة إلى مستوى العلم ، على الرغم من أنها تنفرد من بين العلوم جميعاً بأن تاريخها جزء منها ، لأن الفلسفة وتاريخ الفلسفة غايتهما واحدة ، هى العقل فى حالة فكر ، أليست الحياة ذاتها هى حياة الفكر ؟ والتاريخ الإنسانى كله هو تاريخ الفكر ، مرتبطاً بتطور الشعوب الحرة ، أو تطور الشعوب بالحرية ؟

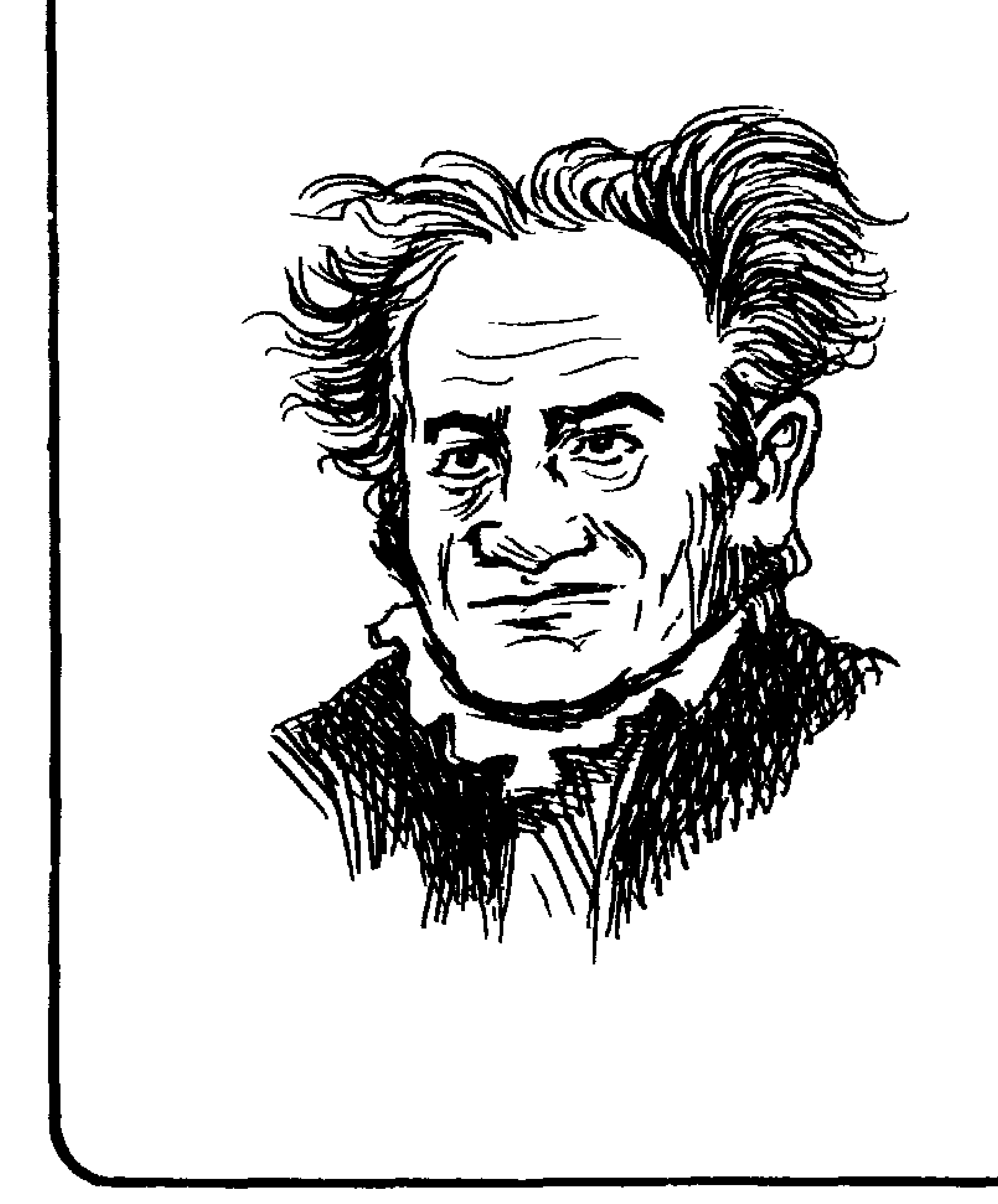
فإذا كان « هيجل » بمثاليته قد رفض البرهان على وجود الله ، إذا كان مصدره الحاجة إلى قوة خارجية ، اقتناعاً عقلياً منه بأن وجود الله مطلق وغير مرهون بشىء أو بدعوى أو بحجة ، فقد قرر بمثاليته أيضاً أن الدين ، وهو الظاهرة غير المعزولة عن التاريخ والحضارة ، إحدى حالات ثلاث تدرك بها الروح ذاتها ، شأن الفلسفة والفن .

أما فلسفة الجمال عند « هيجل » فتعنى الفن الجميل ، وليس الشىء الجميل .. والجمال عنده حدث وفعل وليس صفة وكيفاً .. فالتمثال من الممكن أن يكون إنساناً ، ومن الممكن أن يتحقق الإنسان فى التصوير وفى الموسيقى وفى الشعر وفى الأدب .. الجمال إذن هو الإنسان ، والفن الجميل

رسالة تعبر عن روح الشعب فى إطار روح العصر وليس لصالح فئة معينة ، ولا بمعزل عن الزمان والمكان .. والإبداع الفنى مزيج من العقل الواعى الجمعى والإلهام الذاتى الوضعى ، لدرجة الاتحاد العضوى أو التوحيد بينهما ، بحيث يستحيل الجانب العقلى إلى إحساس خالص ، على خلاف « شيلر » الذى كان يقول بأن الفن هو التوفيق بين المحسوس والمعقول .. فإذا كان الجمال غاية مطلقة ، فهو لاينقسم بحال إلى واقع خالص وصورة خالصة ، وإن كان هو المظهر الحسى للفكرة أو المظهر الشكلى للحياة .. والفن - الذى هو الجمال - فكر مطلق ، شأن الدين والفلسفة .

وهكذا تكتمل ثلاثية « هيجل » المنطقية أو « ظاهريات الروح » فلسفة الدين ، وفلسفة الفلسفة ، وفلسفة الجمال ، وإن أضاف إليها فلسفة القانون ، وفلسفة التاريخ ، وفلسفة تاريخ الفلسفة .





شوبنهاور
وفلسفة الإرادة

١٧٨٨ - ١٨٦٠

شوبنهاور وفلسفة الإرادة
(١٧٨٨ - ١٨٦٠)

فى الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٨٦٠ توفى الفيلسوف الألمانى « آرثر شوبنهاور » وكان قد ولد فى مدينة دانتزيج عام ١٧٨٨ لأسرة عريقة تعمل بالتجارة .. وانتقل إلى باريس وهو فى التاسعة من عمره ، ثم التحق بمدرسة داخلية بإنجلترا وهو فى الخامسة عشرة ، فتعلق بالدراسة الأكاديمية وبالحياة الأدبية من خلال « صالون أمه الأدبى » الذى كان تؤمه الصفوة من المثقفين .. وتأثر بالرومانسيين ، ومع هذا فقد اهتم بدراسته العلمية حتى أصبح محاضرًا فى برلين ، ووضع أهم كتبه « العالم كإرادة وفكرة » وهو فى الثلاثين من عمره .. وعاش فى أواخر أيامه - كما عاش طوال حياته - وحيدًا بغير زوجة ولا ولد ، مما دفعه إلى الإيمان بالنزعة الروحية ، وبالسحر أيضاً .

أما مذهب « شوبنهاور » أو مبدؤه الواحد الشامل الذى تتفرع منه المبادئ الفلسفية الأخرى المتضمنة لفلسفته الرئيسية فينصبّ على الإرادة الإنسانية الواحدة التى لازمان لها ، مستمدة من إرادة الله ، وإنِ اتَّحَدَتْ مع إرادة العالم بأسْرِهِ .. والإرادة هى وجود الإنسان الظاهرى ، وهى الدافع لأفعاله وحركاته وتحركاته .. وهى بهذا المعنى ليست غاية فى ذاتها ، ولكنها وسيلة لتحقيق الرضا وسط عالم مملوء بالشرور ، وحياة مفعمة بالتشاؤم ، وتنتهى حتماً بالموت .. ولأن الإرادة لاتفضى بالضرورة إلى السعادة المنشودة فإنها تسبب الألم الذى يقل كلما قلت ممارسة الإرادة .. ولهذا يتفق « شوبنهاور » مع النزعة الصوفية فى زهدها للحياة ، بما فيها من إرادة مصحوبة برغبات ، طلباً للسعادة الدنيوية ، وطمعاً فى نعيم الآخرة .. وإن كان الزهد فى ذاته فعلاً إرادياً قد يصل إلى تعذيب الذات والإبطال التام للإرادة الفردية .. فالعالم – كما يظهر لشوبنهاور – هو تجسيد للإرادة فقط ، وباستسلامها تمحى كل ظواهرها .. ولكنه يعود ليؤكد أن الإرادة حقيقة قائمة بذاتها ، وماهية للأشياء جميعاً .

والغريب بعد هذا كله أن يضع « شوبنهاور » نظريته التى تقول بأن الإرادة هى المعرفة الأولى ، وهى أعلى مقاماً من المعرفة ومن العقل الخالص بالتالى .. ولهذا فإن الصراع بين

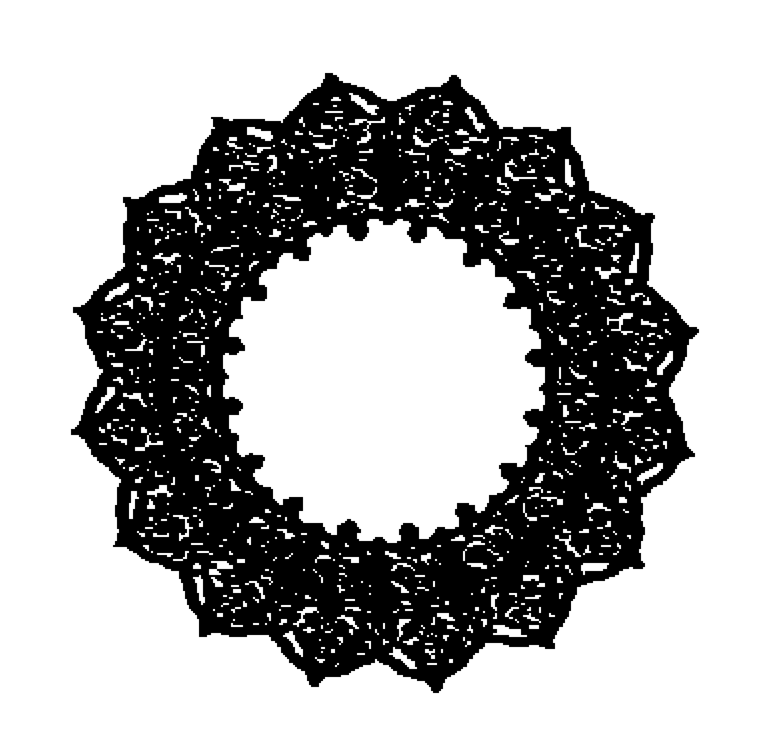
الإرادة والعقل ينتهى إمَّا بالسعادة أو بالشقاء ، تبعاً لمقدار الصواب والخطأ .

إن فلسفة « شوبنهاور » تثق فى الإنسان وتعتبره الركيزة المحورية التى يدور حولها الكون كله .. وهو عندما يتكلم عن الإنسان إنما يعنى الإنسان الفرد ، وليس الإنسان على الإطلاق ، بحيث يصبح الفرد ظاهرة من ظواهر الإرادة .. وهنا تتحول الإرادة إلى مبدأ لا عقلى ، أو مضاد قوى للعقل القاصر دائماً - مهما بلغ من رجاحة - عن الوصول إلى المطلق .. وهى إحالة إلى فكرة القضاء على الفردية أو الشخصية المتفرّدة إذ لاتمايز واضحاً وحادًّا بين فرد وآخر ، أو بين شخص وآخر ..

أما تشاؤمية « شوبنهاور » المفرطة التى ترى أن العالم وجد ليعكر صفونا ، وأن الحياة لاغاية لها ، فقد أثرت فى جيل بأكمله من تلامذته ، فيما عدا تلميذه الفذ « نيتشه » الذى اكتشف - برغم تشاؤميته هو الآخر - أن الحياة هى الغاية فى ذاتها ، وليست الغاية هى الحياة .. كما يختلف مع أستاذه الذى يعلق قيمة الحياة على مقدار ما تمنحه لنا من سعادة أو شقاء ، لأنه يرى أن الحياة هى القيمة التى تقوم بها السعادة أو الشقاء ، تؤكدها كقيمة فى حد ذاتها الأخلاق ، وتدحضها اللاأخلاق ، أو الخير والشر .. وبينما ينكر « شوبنهاور » إرادة

الحياة ، ينتصر لها « نيتشة » وغيره من فلاسفة القرن التاسع عشر ثم قرننا العشرين .

لقد بنى « شوبنهاور » مذهبه على الواقع وليس من نسج الخيال ، وهو إذ يمجد « قوة الإرادة » ينحنى فى الوقت نفسه لإنكار الذات .. ولذلك اصطبغت فلسفته بالصبغة الإنسانية ، ففيها من العقل قدر ما فيها من الوجدان ، وفيها من الحدس بقدر ما فيها من الحس والإحساس .. وهو عندما يصور الحياة بظلاله الداكنة إنما يدعونا لتلوين حياتنا بالوردى من الألوان ، وعندما يغلق أبواب السعادة بمفاتيحه الحديدية إنما يحفزنا إلى فتحها بقوة إرادتنا وبإرادة الحياة .





الطهطاوى وفلسفة الحضارة

١٨٠١ - ١٨٧٣

الطهطـاوى وفلسفـة الحضـــارة
(١٨٠١ - ١٨٧٣)

فى يوم الثلاثاء ٢٧ مايو ١٨٧٣ ، توفى بالقاهرة رفاعة رافع الطهطاوى ، وكان قد ولد فى طهطا عام ١٨٠١ سليلاً للطاهرة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم . حفظ القرآن بمساعدة والده الذى أوفده – برغم حاجته – إلى الأزهر عام ١٨١٧ ، حيث أتم الفتى رفاعة تعليمه بعد خمس سنوات ، فتولى التدريس فيه إلى أن اختير على رأس بعثة « محمد على » الموفدة إلى فرنسا عام ١٨٢٦ ، ولخمس سنوات أخرى ، فتعلم الفرنسية وترجم إلى العربية أكثر من عشرين كتاباً فى التاريخ ، والجغرافيا ، والأدب ، والشعر ، والسياسة ، والعلوم ، والهندسة ، والطب . وسجل ملاحظاته فى العلم والمعرفة والحكمة ، والتى تشمل حضارة الغرب ، آن ذاك ،

فى كتابه الضخم « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » الذى نُشر لأول مرة عام ١٨٣٤ ، والذى نبه فيه الشرق إلى اليقظة والنهوض ، ودعا فيه إلى إنشاء « مدرسة الألسن » التى أنشئت بالفعل عام ١٨٣٥ ، وعُرفت باسم « مدرسة المترجمين » لتعلم اللغات الأجنبية ، وترجمة ما من شأنه أن يلخص « حضارة أمة ونقلها إلى أمتنا » لتغذى بها حضارتها الضائعة ، وقد كانت يوماً هى « الحضارة الأم » .

لم يصدر رفاعة الطهطاوى عن عقدة نقص بعد مشاهداته لحضارة الغرب ، ومطالعاته فى مآثرها ، ولم يصدر عن عقدة استعلاء لإدراكه بأن هذه الحضارة ما هى إلا ميراث لحضارة أمته ، فمازال يقارن بين ابن خلدون ومونتسكيو ، وبين الفارابى ودى ساسى ، ولكنه جمع بين حضارة الغرب المتقدمة ومفاخر حضارة العرب القديمة ، ولذلك عنى بإحياء التراث القديم مثلما عنى بترجمة مآثر الغرب ، تحقيقاً للنهضة الفكرية ، ودفعاً لحركة البعث الجديد

ولكن الطهطاوى حُورب ، فما إن تولى الخديو عباس حتى ألغى مدرسة الألسن ، وأبعده إلى السودان حيث عُين ناظرًا لمدرسة ابتدائية أنشأها بنفسه لتكون نواة لنشر التعليم ، وليبدأ من جديد رحلته فى الارتقاء بالبشر أينما كانوا ، وكلما أتيحت له الفرصة ، إلى أن تولى الخديو سعيد ، فأعاده إلى

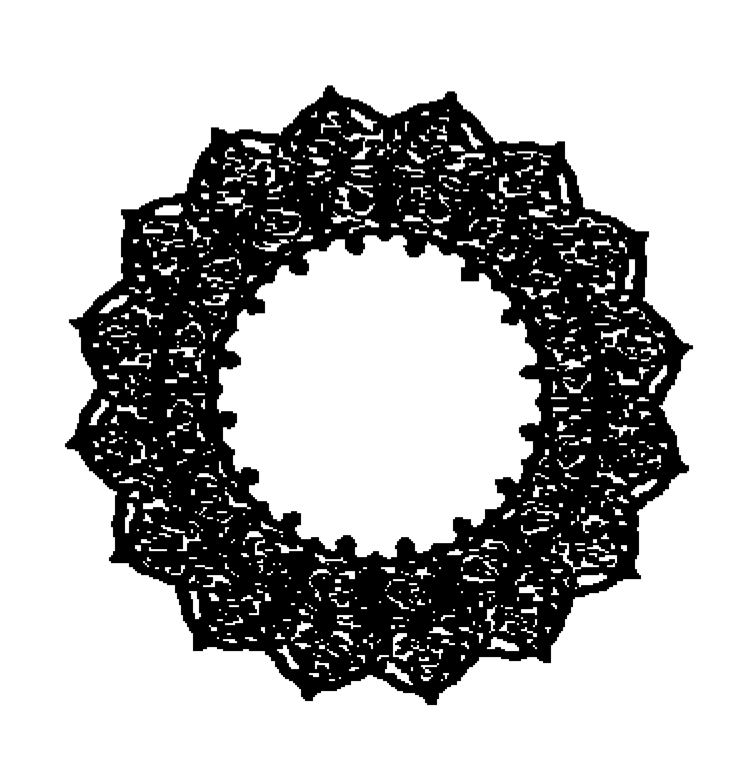
مصر وعينه ناظرًا للمدرسة الحربية ، وعندما تولى الخديو إسماعيل أعاد ديوان المدارس ، وعهد إلى رفاعة بافتتاح المدارس الجديدة ، ومن بينها مدرسة الألسن .

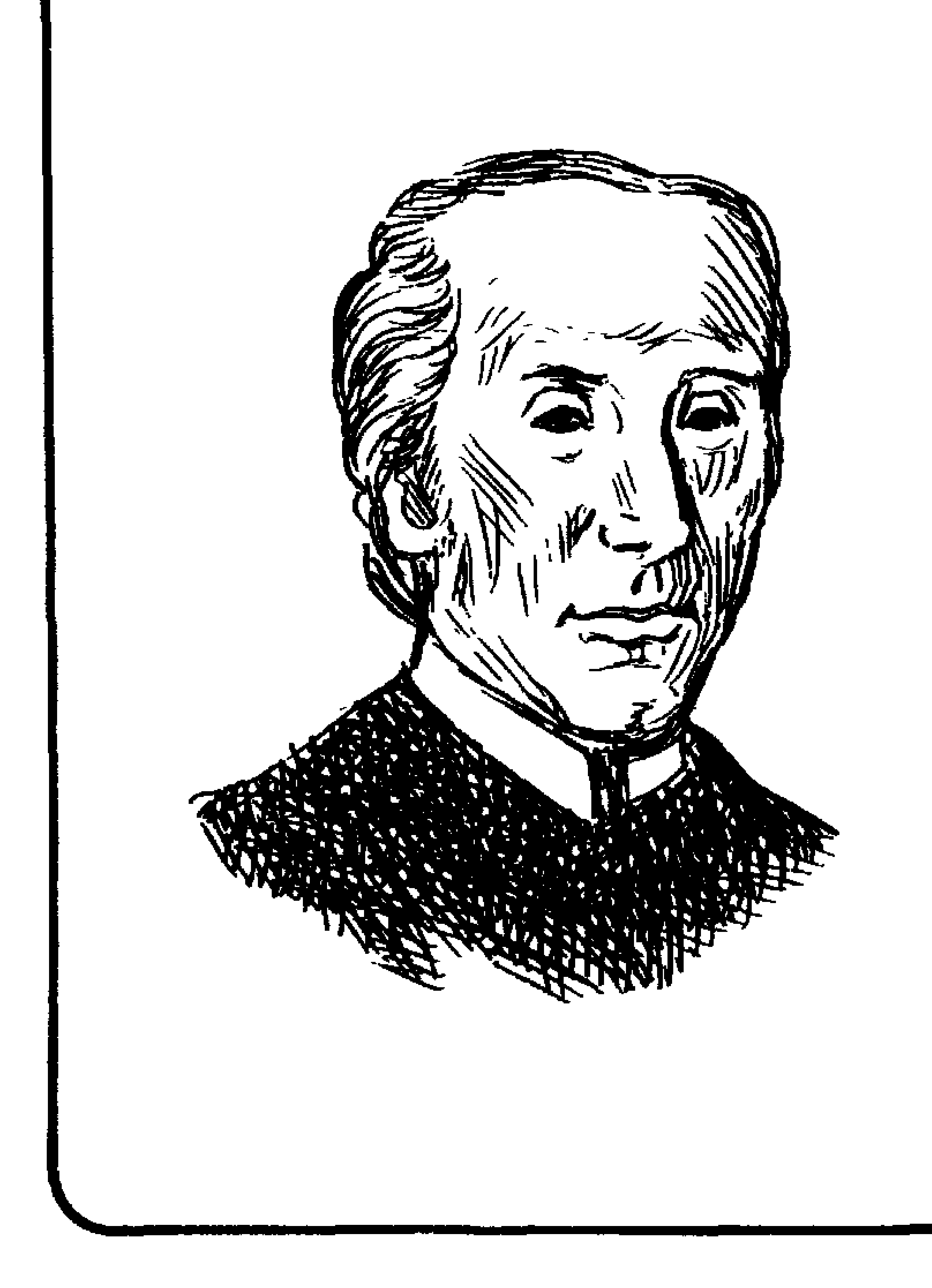
وكان « رفاعة الطهطاوى » أول من دعا إلى تعليم المرأة قبل « قاسم أمين » ، صاحب الدعوة نفسها المؤثرة والشهيرة معاً . وكان الطهطاوى أول من أطلق – خاصة فى كتابه « المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين » من منطلق الحرية – دعوة الود والتفاهم المشترك بين الرجل والمرأة فى العمل ، وفى علاقتهما الزوجية التى ينبغى أن تتسم بحسن العِشْرة ، والاهتمام بتربية الأبناء فى جو صالح وصحى ، آخِذًا بنظم التربية الحديثة فى الغرب ، وتطبيقاً – أولاً وأخيرًا – للشريعة الإسلامية السمحة ، ذات النظرة الاجتماعية ، دوماً فى كل الأوطان ، ولكل العصور .. وحرية « الطهطاوى » هى قرينة المساواة والعدالة ، وقد قسمها إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، كحق الإنسان فى الماء والهواء والأكل والشراب ، وحرية سلوكية تستهدف مكارم الأخلاق ، وحرية دينية فى اختيار العقيدة ، وحرية مدنية فى تطبيق القوانين ، وحرية سياسية فى الرأى والتعبير .

وكما كان « الطهطاوى » مترجماً مبدعاً فى اختياره وتناوله – وليس مجرد ناقل – وكما كان « موسوعيًّا » فى كتاباته المختلفة – وليس مجرد رَحَّالة – كان مؤرخاً عالماً يستند إلى

الوقائع ، ويرجع إلى الكشوف الأثرية .. وهو أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم ، وآمن بأمجاد هذا التاريخ ، ولم يكتف بالكشف عن هذه الحقبة الحضارية الأصيلة فى تاريخنا ، بل أَرَّخَ للفتح العربى ، ولصاحب الدعوة الإسلامية عليه الصلاة والسلام .

لقد كان رائد الفكر المصرى الحديث « رفاعة رافع الطهطاوى » معلماً لأُمَّةٍ ، وباعثاً لنهضةٍ ، وَبَشيرًا للتقدم .





ستيوارت مل والفلسفة النفعية

١٨٠٦ - ١٨٧٣

ستيوارت مــل والفلسفـة النفعيـة
(١٨٠٦ - ١٨٧٣)

ولد « جون ستيوارت مل » فى العشرين من مايو عام ١٨٠٦ بلندن ، وتوفى فى الثامن من مايو أيضاً ، ولكن فى أفينيون الفرنسية عام ١٨٧٣ .. تتلمذ على اثنين من كبار مفكرى عصره ووطنه : والده « جيمس مل » والمصلح « جيرى بنتام » وَإنْ عَلَّمَ نفسه بنفسه عن طريق الكتب التى شغف بها مبكرًا ، والتهمها منذ الصغر .

بدأ – فى مذهبه النفعى – بالحرية الفردية والسعادة الفردية والنظرة الأنانية ، وانتهى إلى التبشير بالحرية الجماعية والسعادة الجماعية والنظرة الغيرية ، منطلقاً مما هو كائن « الرغبة » إلى ما ينبغى أن يكون « تحقيق هذه الرغبة » فالمنفعة الشخصية هى التى تدفع الإنسان إلى إفادة غيره ، ومن السذاجة توقع

إقدام الآخرين على فِعْلٍ لايحقق لهم نفعاً ، حتى الغيرية ، هى فى الحقيقة أنانية مُقَنَّعَة ، وما يبدو فى نظر الناس فعلا مجردًا غالباً ما يكون مَرَدُّهُ حب الذات ، وتلك خلاصة فلسفته الأخلاقية . تلك الفلسفة التجريبية الحسية التى تتطبع بطابع العلم ، وتقوم على مناهجه القياسية ، تماماً كالعلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر بالملاحظة الدقيقة ، والاستدلال المنطقى ، والاستنباط العقلى ، والاستقراء التجريبى ، والتحليل الموضوعى ، ذلك أن الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والواجب والإلزام ، حالات جزئية مكتسبة وليست طبيعية عامة يُولد بها الإنسان .

ولكن « مل » استطاع أن يتخلص نتيجة لأزمته العاطفية والنفسية (١٨٢٦ - ١٨٣٢) من الفلسفة الإنجليزية القائمة على الحسية المادية ، وتأثر بالفلسفة الألمانية القائمة على النزعة الوجدانية ، فتطلع إلى الكمال الروحى ، واعتبره غاية السلوك الإنسانى ، فالخير ينبغى أن يكون لذاته ، والشر مرفوض لذاته أيضاً . وهكذا يُمْكِنُ الفعلُ الخيِّرُ أن يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ، وتجنب الشر يزيد من فرص السعادة ، بغض النظر عن إعاقة مصلحة أو تحقيق أخرى ، وبغض النظر عن إثارة ألم أو إشباع لذة ، وتلك خلاصة اتجاهه المثالى ، ذلك الاتجاه الذى يوازن بين المصلحة

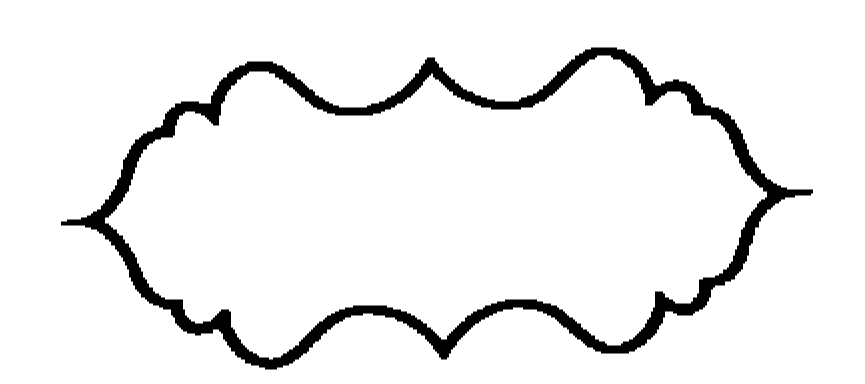
الشخصية ومصالح الآخرين ، تطبيقاً لمبدأ « المسيح » عليه السلام « أحب جارك كما تحب نفسك » .

وانطلاقاً من هذا التبادل النفعى فى المصالح وفى الحب بين إنسان وآخر دافع « مل » عن المرأة بوصفها إنساناً ، تحقيقاً للمساواة بينها وبين الرجل ، على أساس أنها مساواة نفعية أيضاً ، فالحب والزواج والأمومة والرعاية والعمل ، أخذ وعطاء لاينبغى أن يستفيد أحد أطرافها دون أن يفيد الآخر ، وهكذا جاء انتصار « مل » للمرأة ونضاله فى سبيل تحريرها ، انتصارًا للحرية التى عشقها ودافع عنها حتى آخر العمر .

ولم يكتف « مل » بتطوير نفعية الإنجليز التقليدية ، بعد تطعيمها بمثالية الألمان الرومانتيكية ، وإنما طالب الإنسان المتحضر بالبطولة . والبطولة عنده هى التضحية فى سبيل الآخرين دون تحقيق مصلحة شخصية أو منفعة ذاتية ، بحيث يمكن أن تصل هذه التضحية فى درجاتها العليا والأسمى إلى الاستشهاد ، أفضل الفضائل جميعاً ، كما جاء فى رسالة « محمد » عليه الصلاة والسلام .

ويرى « مل » فى بطولته المنشودة أساساً لمشكلة الجبر والاختيار ، وحسماً لها ، فإذا كان « ديفيد هيوم » يقول إن الشعور بالحرية خداع ذاتى ، مؤكداً أن الإنسان مُجْبَرٌ وليس مُخَيَّرًا ، فإن « مل » اعترف بجبرية محدودة فى مقابل حرية إرادة ، وإن كانت مقيدة ، مُفَرِّقاً بين حرية السلوك وحرية

الرغبات ، فالسلوك يخضع للعادات ، فى حين تخضع عاداتنا لرغباتنا . وهكذا تجنب القول بالجبر المطلق ، والقضاء والقدر دون أن ينزلق فى القول بحرية الإرادة الكاملة ، فالإنسان يختار بحرية فى حالات كثيرة ، وخاصة عندما يميز بين الخير والشر ، وهو ليس مجبرًا فى كل الأحوال ، وخاصنة عندما يفاضل بين أن يكون أو لايكون ، وتلك هى فلسفة هذا المفكر « جون ستيوارت مل » .





وليم جيمس..
وفلسفة الحياة

١٨٤٢ - ١٩١٠

وليم جيمس .. وفلسفة الحياة
(١٨٤٢ - ١٩١٠)

فى العشرين من عمره ، كوّن وليم جيمس فلسفته فى المنهج ، وأسس نظريته فى المعرفة ، وسجل رأيه فى الأخلاق ، ووضع مبادئ علم النفس ، وبعد سنوات أقام أول معمل لعلم النفس التجريبى ، حيث كان يدرس فيه علم النفس الفسيولوجى .

ولد جيمس فى الحادى عشر من يناير عام ١٨٤٢ فى أسرة متدينة وثرية ، كثيرة التنقل والإقامة فى دول أوربا ، مما اضطره إلى الالتحاق بمدارس لندن ، وباريس ، وبولونيا ، وجنيف ، حتى عاد إلى مسقط رأسه نيويورك حيث درس التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، ثم الطب بجامعة هارفارد ..

وفيها عُيِّنَ بعد حصوله على الدكتوراه مدرساً لعلم وظائف الأعضاء ، ثم للتاريخ الطبيعى ، ثم للتشريح المقارن ، ثم للفسيولوجيا ، فأستاذاً للفلسفة .

أصيب وليم جيمس بأزمات صحية ونفسية حادة ، منها : الوسوسة ، والوهم ، والشك ، والخشية ، والخوف ، إلى أن تزوج وهو فى السادسة والثلاثين ليشفى من أمراضه ، ويتفرغ لأبحاثه الفلسفية ، وإلقاء محاضراته وإصدار كتبه ، وأهمها « مبادىء علم النفس » ، و« أحاديث سيكولوجية » و« إرادة الاعتقاد » و« صنوف التجربة الدينية » ، و« براجماتزم » ، و« بعض مشاكل الفلسفة » و« مقالات فى التجريبية الأصيلة » و« الكون المتعدد » و« معنى الصدق » .

وظل جيمس يحاضر ويكتب ويقرأ حتى توفى فى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩١٠ ، وتقوم فلسفة جيمس النفعية أو البراجماتية على الجمع بين الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية ، لسد أوجه النقص فى كل منهما ، لأن الإنسان لايمكن أن يكون حسًّا خالصاً أو عقلاً خالصاً ، ولايمكن أن نفرض عليه الاختيار بين التجريبيين الذين يفكرون فى قضايا الدين والإيمان ، والعقلانيين الذين يؤمنون بالمبادىء الثابتة وحدها .

ولذلك يحدد جيمس فلسفته بأنها منهج وليست مذهباً ، وهو منهج ينتقل من البحث النظرى التأملى المجرد إلى البحث العلمى التجريبى المحدد . هذا البحث العلمى التجريبى هو الذى استخدمه فى بناء علم النفس ، وفى إخضاعه للتجارب المعملية . وخاصة فيما يتعلق بعلم النفس الفسيولوجى .

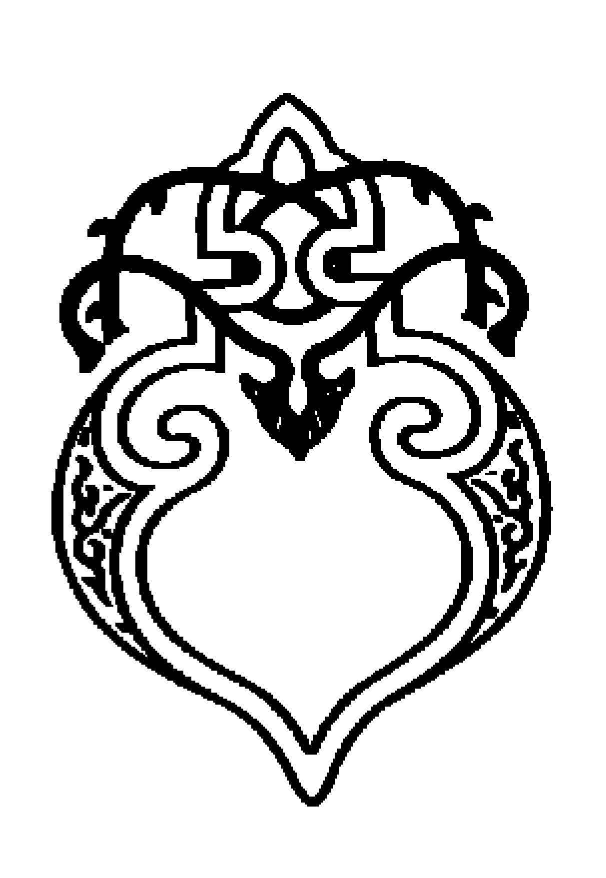
المنهج النفعى إذن هو استخلاص كل ما هو نافع من المناهج والمذاهب والنظريات جميعاً ، واتباعه وتطبيقه بالعقل وبالتجارب ، فالإنسان فى حاجة إلى الأفكار المحسوسة مثلما هو فى حاجة إلى الحقائق الملموسة ، وعلى هذا فإن النفس أو الذات أو الروح ليست مشاعر وأحاسيس ومدارك فحسب ، فهى أعضاء وأجزاء وشرايين أيضاً ، ومن هنا التعامل معها بالعقل وبالعلم معاً ، أو بالفكر والمادة جميعاً .

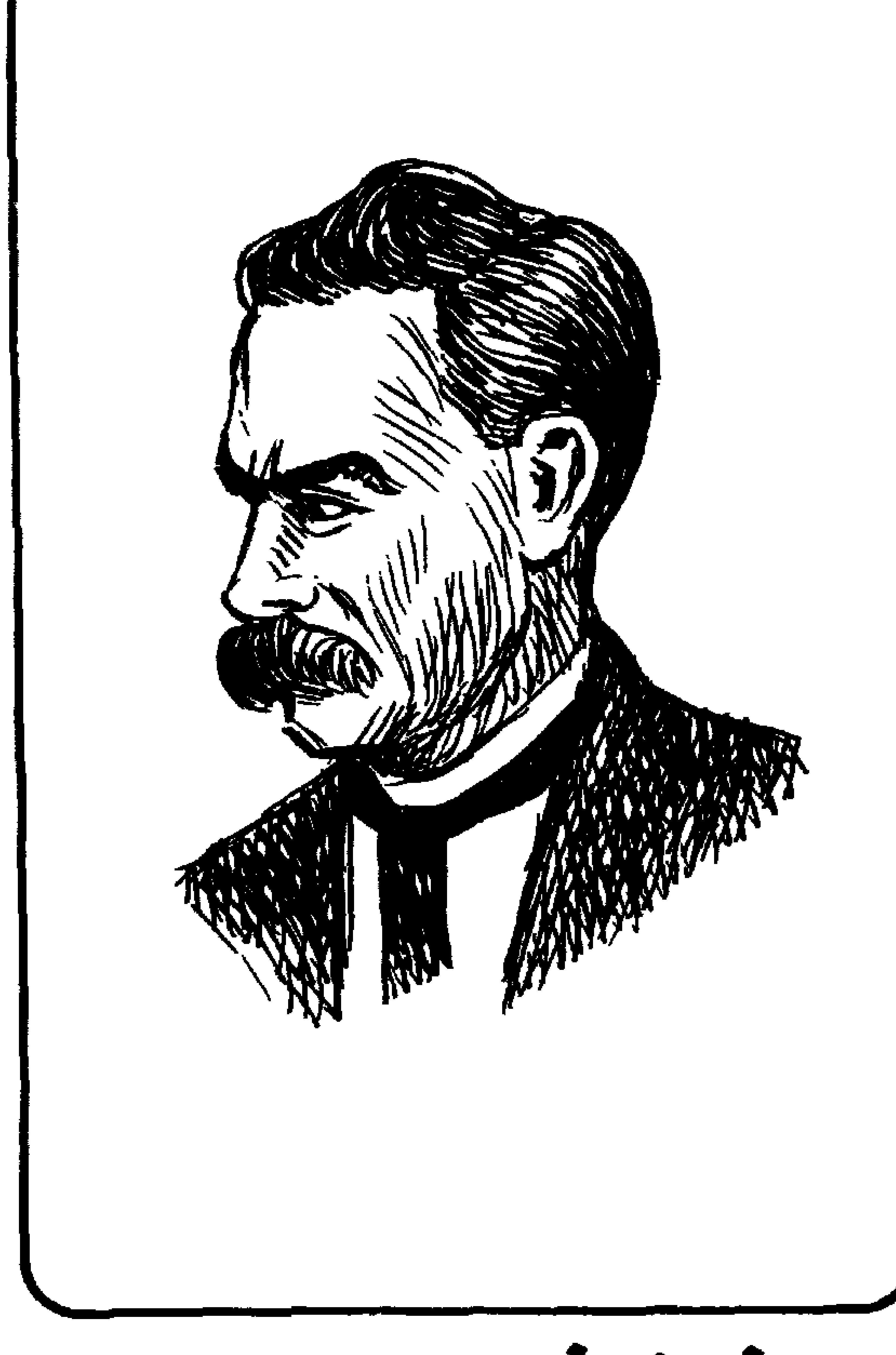
وقد يساء فهم البراجماتية أو النفعية ، فيظن أنها سلوك يستهدف المصلحة الشخصية والمصالح المادية ، ولكنها فى الحقيقة طريقة محكمة للمعرفة ، والحياة تقوم على الصدق العقلى واليقين العلمى ، إيماناً بهما معاً ، والاعتماد عليهما فى الوقت نفسه .

بهذا المنطق وعلى هذا النحو ، طبق وليم جيمس منهجه البراجماتى على الوجود والمعرفة والدين والأخلاق والإرادة

الإنسانية ، رافضاً فى كل أبحاثه ودراساته المثول للاتجاه المثالى – الألمانى بخاصة – وتغليب الاتجاه الواقعى ، وإن لم يكن واقعيًّا بالمعنى الكامل والمباشر .

هذا فى الوقت الذى يعد فيه ، وليم جيمس ، المصدر الأول لفلاسفة الواقعية الجديدة ، والواقعية النقدية ، فى عصرنا الحديث .





نيتشه ..
وفلسفة القوة

١٨٤٤ - ١٩٠٠

نيتشه .. وفلسفة القوة
(١٨٤٤ - ١٩٠٠)

قبل حصوله على درجة الدكتوراه ، وعلى الجنيسة السويسرية ، عُين فريدريك نيتشه أستاذاً لفقه اللغة والآداب الكلاسيكية بجامعة بازل .. ولكنه سرعان ما ضاق بالتدريس ، ربما لأسباب صحية ، فقد ضعف بصره ووهن جسده ، وأصبحت تعاوده نوبات صداع حادة ، وآلام جسمانية متعددة ، ومع هذا كرس نفسه للكتابة حتى أصيب بانهيار عقلى وبدنى قبل رحيله باثنى عشر عاماً ، فى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٠٠ ، وكان قد ولد قبل هذا التاريخ بست وخمسين سنة ، وبالتحديد فى الخامس عشر من أكتوبر عام ١٨٤٤ ببلدة ريكن البروسية ، فى أسرتين

بروتستانتيتين ، فهو ابن لكاهن ، وحفيد لكاهن ، ومع هذا لم يكن متديناً على الإطلاق .

ونتيجة لعبقريته وجنونه فى الوقت نفسه ، وضع نيتشه أربعة عشر مؤلفاً ، أبرزها : ميلاد المأساة من روح الموسيقى (١٨٧٢) . أمور إنسانية (١٨٧٨) . هكذا تكلم زرادشت (١٨٨٣) . بمعزل عن الخير والشر (١٨٨٥) . أصل نشأة الأخلاق (١٨٨٧) .. وأهمها : إرادة القوة (١٨٨٨) .

فهو يرى أن إرادة القوة هى أكثر الدوافع الإنسانية ، وأن ما يريده الإنسان هو أن يكون أقوى وأسمى من واقعه ومن الوجود كله ، بالتغلب على حالات اليأس والقهر والضعف التى تواجهه وتعترضه ، سعياً للوصول إلى الكمال ، ولأن يصبح خالقاً بدوره وليس مجرد مخلوق .

وبرغم عدم تدينه ، فإن نيتشه كان فيلسوفاً ومصلحاً أخلاقيًّا ، يدعو إلى تحرر الإنسان من الانتقام والعقاب والسيطرة أو الشر ، وصولاً إلى الخير ، ممثلاً فى الفضائل والروحانيات ، والتسامى بالعواطف ، وإنجاز الأعمال العظيمة ، حتى « تصبح الحياة على الأرض جديرة بأن نحياها » . ويرى نيتشه أن كل نظام أخلاقى يستهدف الحد من

الفوضى والانحلال ، لابد له من قواعد يضعها ، وقيود يفرضها ، وقوانين يطبقها ، برغم ما فى ذلك من تحكم واستبداد ضد الطبيعة والعقل .

والقيم العقلية والأخلاقية تقوم إذن على فكرة الحقيقة ، تلك الفكرة التى يرى نيتشه – على العكس من كل الفلاسفة السابقين عليه – أنها ليست مطلقة ، كما هو شائع حتى الآن ، لأنها جزء من الحياة ، والجزء لايمكن أن يكون بأى حال مطلقاً ، وعلى هذا فإن تلك القيم لايمكن أن تكون بدورها ثابتة ، لأنها تصبح متقلبة مع الحياة فى تغيرها وصيرورتها .

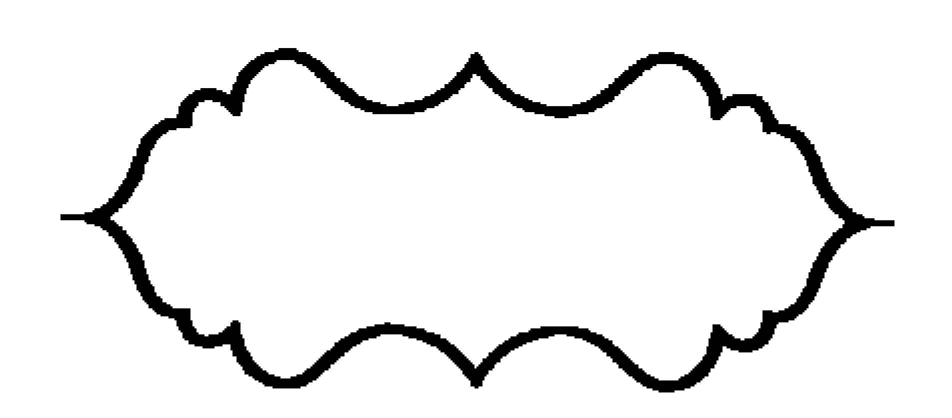
فإذا كانت الحقيقة خاضعة للنافع فى الحياة فإن وسائل المعرفة التى يستهدف بها بلوغ الحقيقة ، سوف تخضع بدورها للحياة . وهكذا يتضح أن أصل المعرفة والمنطق ، ليس هو الرغبة فى المعرفة خالصة أو المنطق مجردًا ، وما ينطبق على المعرفة والمنطق ينطبق بالتالى على كل مبادئهما .

ويؤدى نقد العقل ، على هذا النحو ، إلى نقد الميتافيزيقا فى الفلسفة التقليدية ، وخاصة فكرة الجوهر التى تضفى على الكون صفة الثبات ، وتعكس على الإنسان موضوع الذات .. وهنا ينقض نيتشه على مقولة ديكارت « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » وتتفق معه فى ذلك كل المذاهب الوضعية المنطقية الحديثة .

أحب نيتشه موسيقى « فاجنر » لما فيها من قوة ، وأعجب بفلسفة « شوبنهاور » لتأكيدها على الإرادة ، واستوحى منهما معاً فكرته عن « قوة الإرادة » ، ومع هذا نَقَدَهُمَا وهاجَمَهُمَا ، فى محاولة واعية منه للتفوق عليهما .

أما هو فكان تأثيره واضحاً على الوجوديين والنفسانيين والعبثيين ، فضلاً عن شيلر ورلكه وشبنجلر وتوماس مان ومالرو .

وكما كتب نيتشه فى مطلع حياته « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » ليمجد فاجنر ، كتب ريتشارد شتراوس قصيدًا سيمفونيًّا عن « زارادشت » ليمجد نيتشه .. ذلك العبقرى المجنون .





محمد عبده
وفلسفة الهداية

١٨٤٥ - ١٩٠٥

محمــد عبــده وفلسفـة الهدايــة
(١٨٤٥ - ١٩٠٥)

ولد فى نفس اليوم وفى نفس الشهر اللذين توفى فيهما ، الحادى عشر من يوليو ، والفرق بين سنة الميلاد ١٨٤٥ وسنة الوفاة ١٩٠٥ ، ستون عاماً هى عمره العريض .

ابن عصره ، وطليعة جيله ، ورائد أمته ، شأن القائد الملهم ، والعالم البصير ، والمثقف المستنير ، إنه الأستاذ الإمام « محمد عبده » باعث نهضتنا ، ومصلح حياتنا ، ومثبت عقيدتنا . ولد « محمد عبده » بقرية حصة شبشير بالغربية ، ثم انتقل إلى قرية « محلة نصر » بالبحيرة .. علّمه والده القراءة والكتابة بعد أن أعفاه من العمل فى الحقل مع أخويه ، ثم عهد به إلى أحد المشايخ ليحفظه القرآن الكريم ، فلما أتم حفظه بعد

سنتين ، عنى بتجويده فى المسجد الأحمدى ، وتزوج محمد عبده فى السادسة عشرة من عمره حتى لاينشغل عن العلم والدين ، والتحق بالأزهر ، دون أن يهمل الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء ، وبصفة خاصة على يدى جمال الدين الأفغانى بمجرد وصوله إلى مصر .

أخذ الإمام محمد عبده يكتب فى الصحف والثورة الأولى على الأبواب . فقصر مقالاته على الدعوة إلى التعليم وإصلاحه ، حتى إنه طالب الزعيم أحمد عرابى بالاهتمام بالتربية والتعليم قبل التركيز على الثورة والسلطان ، فَعِلْمُ الأمة هو الكفيل برد حقوقها والحفاظ على روحها ، فلما فشلت الثورة العرابية نفى إلى بيروت . فلم ينقطع عن التدريس ، وانتهز الفرصة لبلورة آرائه فى إصلاح الأمة من منطلق التعليم ، حتى إنه اختلف مع أستاذه الأفغانى فى أسلوب التطبيق ، فبينما يرى الأفغانى خلاص الأمة فى السياسة والثورة ، لايرى محمد عبده الإصلاح إلا فى التعليم ، ولايثق فى إصلاح إلا به .

عمل محمد عبده مضطرًّا بالقضاء ، فتعلم - بحب - اللغة الفرنسية ، وقرأ بشغف كتب القانون ، ودرس بولع فلاسفة التشريع الغربيين ، ولكنه كان قد خُلِقَ للإصلاح عن طريق قاعات التعليم وصفحات الجرائد وليس داخل ساحات المحاكم وزنزانات السجون ، ولهذا ترك القضاء - برغم عدله فيه -

إلى المجتمع الأشمل بكل ما أوتى من عدالة له وانضم إلى الحزب الوطنى .

وقد كان هو حزب الأمة الوحيد الذى يحمل شعارًا قاطعًا ونافذاً هو « مصر للمصريين » كما انضم إلى جماعة العروة الوثقى بقيادة أستاذه الأفغانى ، والتى أصدرت جريدتها « العروة الوثقى » فى باريس لهدفين محددين وقوميين هما : محاربة الاستعمار بالقول والفعل ، أو بالحق والقوة ، والحفاظ على الوحدة الوطنية بين مسلمى الأمة ومسيحييها .

فإذا كان الإمام الشيخ « محمد عبده » قد تميز بالرحمة والعطف والإحسان كفضائل إنسانية واجتماعية ، وكان مصلحاً أخلاقياً مثاليًّا يجمع بين الإيمان إلى حد التصوف ، والعلم إلى حد العمل ، فقد كان فيلسوفاً إسلاميًّا يحيط بالفلسفة الإلٰهية ، ويهتم بصفة خاصة بالبحث عن الوجود ، فيتفق مع المعتزلة فى تحكيم العقل ، ويخالفهم فى فهم معنى العلوم ، ويتفق مع المتصوفة فى الرياضة الفكرية ، ويخالفهم فى مسألة الذوق والإلهام والوجدان ، ثم يتفق مع أرسطو فى أن الإلٰه هو المحرك الأول ، وهو أبدى لا أول ولا آخر ، ولكنه يرى أيضاً أن الإلٰه الحق هو الوجود الكامل المطلق ، لا يحده زمان ، لأنه خالق الزمان ، وهو القادر سبحانه .



الكواكبى
وفلسفة الاصلاح

١٨٤٨ - ١٩٠٢

الكواكبى وفلسفة الإصلاح
(١٨٤٨ - ١٩٠٢)

فى الرابع عشر من يونية عام ١٩٠٢ توفى بالقاهرة « عبد الرحمن الكواكبى » الذى كان قد وُلد بحلب قبل هذا التاريخ بأربعة وخمسين عاماً . التحق بمدرسة أجداده « الكواكبية » للعلوم الشرعية ، وتتلمذ على يد والده .. اتجه إلى الكتابة فى جريدة « الفرات » الأسبوعية وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وبعد خمس سنوات أنشأ جريدة « الشهباء » الأسبوعية التى تقرر إغلاقها بعد صدور عددها الثالث فقط . لم ييأس « الكواكبى » ، خاصة بعد أن رأس تحرير جريدة بديلة هى « الاعتدال » التى لقيت هى الأخرى المصير نفسه ، فاتجه « الكواكبى » إلى الوظائف العامة والمناصب الفخرية ، فَعُرِفَ بالجدية والنزاهة ، ثم عمل

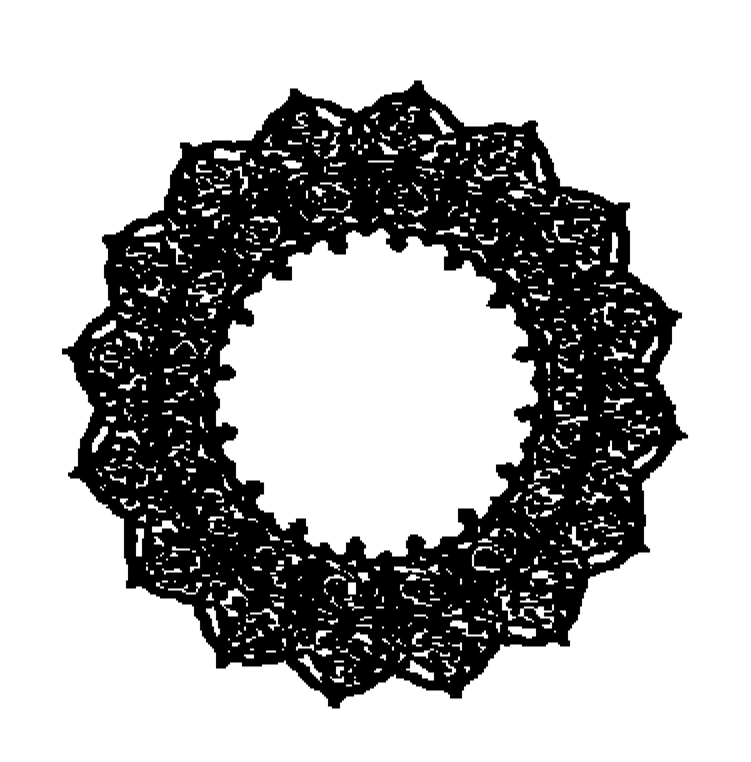
بالمُحاماة ، ولقب « بأبى الضعفاء » لدفاعه عن المظلومين – مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهوداً – بغير تعصب ، ومن منطلق « الوحدة الوطنية » ولكنه سُجِنَ أكثر من مرة ، وحكم عليه بالإعدام ثم بالعفو ، فضاق بالاستبداد ورحل إلى مصر ليقول فيها بحرية كلمته الحرة على مدى السنوات الأربع الأخيرة من حياته القصيرة العريضة معاً .. كتب فى جريدة « المؤيد » ، ونشر كتابيه « طبائع الاستبداد » منددًا بحكم السلطان « عبد الحميد الثانى » و« أم القرى » منادياً بالقومية العربية، تحقيقاً ليقظة الأمة .

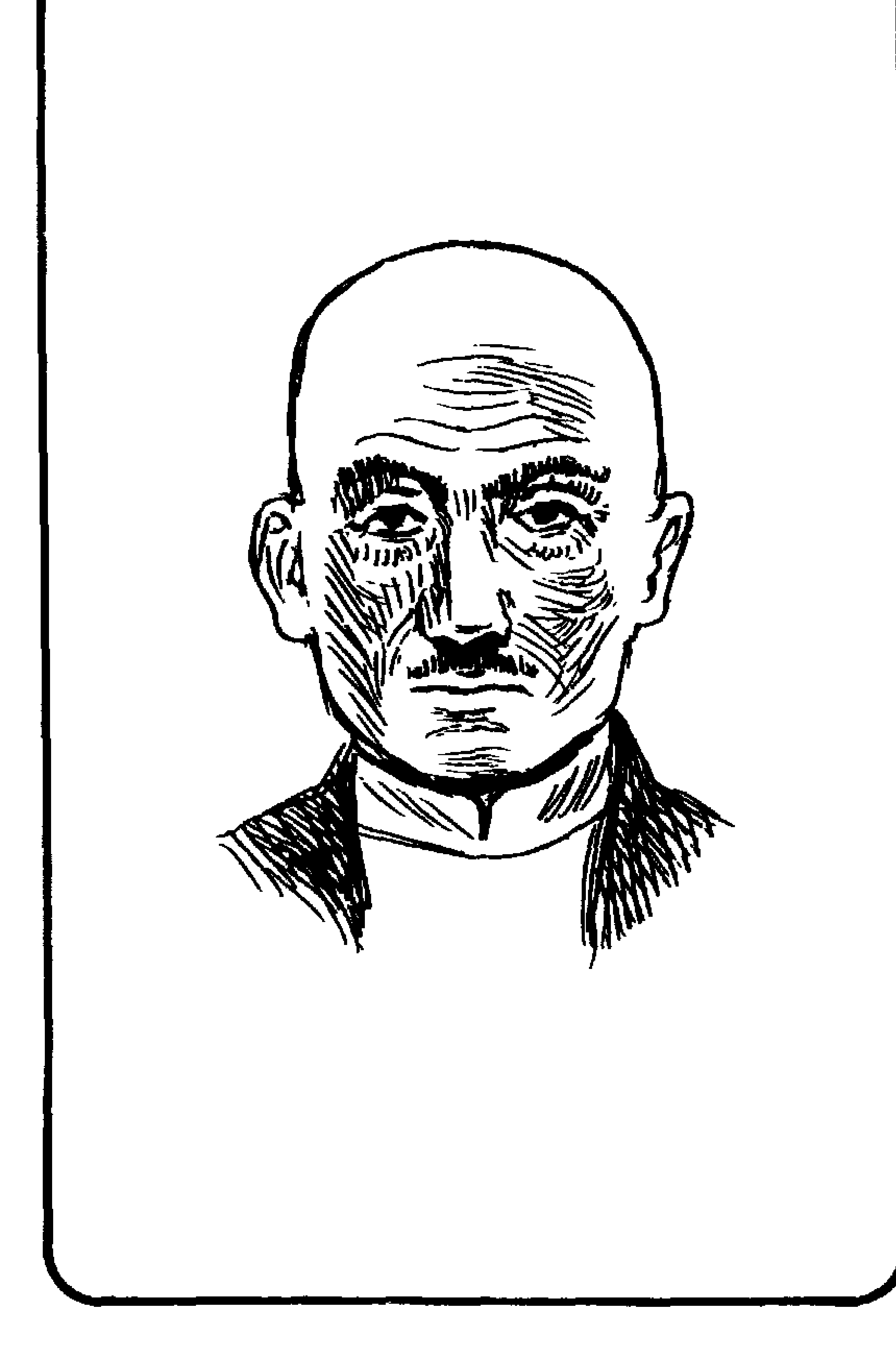
وهكذا يجيء « الكواكبى » بعد « الأفغانى » و « محمد عبده » ليستكمل مثلث ريادة الفكر الإسلامى ، وزعامة الإصلاح العربى ، فالكواكبى يدعو – وهو يفرق بين الشعوب الإسلامية والشعوب العربية – إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعيًّا وسياسيًّا تمثلاً بعهد « الخلفاء الراشدين » ، وتمسكاً بتعاليم « الرسالة » و« الرسول الكريم » .. ويبدأ « الكواكبى » بتعليم وإرشاد وتثقيف المرأة جنباً إلى جنب الرجل ، تفادياً للانحلال ، وسبيلاً إلى الإصلاح ، مثلما نادى « محمد عبده » من قبل ، مختلفاً مع أستاذه « الأفغانى » الذى كان يركز اهتمامه على « العمل السياسى » من خلال « الكتابة الصحفية » فى جريدته « العروة الوثقى » .

وتفرد الكواكبى عن غيره من المصلحين فى محاولة تشخيص داء تخلف الأمة لإمكان تحديد الدواء وتقرير العلاج ، وأول داء فى رأيه عقيدة « القضاء والقدر » التى تفضى إلى الزهد والقناعة والتواكل ، وتقتل الإقدام والطموح والعظمة .. وداء آخر هو التعصب وعدم الاهتمام بمقولة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ثم داء الفقر الذى يقف فى مواجهته فرض « الزكاة » كأساس لبناء الاشتراكية .. والاشتراكية التى دعا إليها « الكواكبى » مبكرًا هى اشتراكية إسلامية ، تنبذ الاستبداد والعبودية ، وتقوم على الديمقراطية والحرية ، بحيث تصبح قادرة على إيقاظ الأمة الإسلامية ، بعد أن أسهم العثمانيون بقدر كبير فى تدهورها .

وكما أكمل « الكواكبى » بعد « الأفغانى » و« محمد عبد » مثلث « الإصلاح الاجتماعى » نراه يكمل مثلث « الإصلاح السياسى » بعد « ابن خلدون » و« الطهطاوى » ، فهو مثلهما يندد بالحاكم الديكتاتور ، سواء كان وارثاً لعرش ، أو قائدًا لجيش ، أو رئيساً لحزب .. كما يندد بالحكومة المطلقة التى لاتطبق مبدأ « الشورى » ، ولاتلقى بالاً لرأى المعارضة .. وهو إذ يسعى إلى إرساء مبادىء العدل والحق والإخاء والمساواة ضد قوانين الاحتكار وإطلاق الملكيات إنما يأمل فى إعلاء شأن الإنسان ، مواطناً أو مقيماً ، دون تفرقة

أو تميز بالعزة والكرامة والفضيلة والشرف ، إيماناً منه بأن الشرق هو مهد الحضارات ومهبط الأديان .. حقًّا لقد جاد الزمان بشخصية « الكواكبي » على الأمة العربية ، فجاد عليها « الكواكبي » بفكره سلاماً وحرية وأماناً .





برجسون وفلسفة الحرية

١٨٥٩ - ١٩٤١

برجسون وفلسفة الحرية
(١٨٥٩ - ١٩٤١)

في الرابع عشر من يناير عام ١٩٤١ رحل الفيلسوف الفرنسي « هنرى برجسون » ، الذى ولد بباريس فى الثامن عشر من أكتوبر عام ١٨٥٩ من أب فرنسى وأم إنجليزية .. تلقى برجسون دراسته فى الليسيه ، ثم تلقى ثقافته فى مدرسة المعلمين العليا ، ومن هنا برز اهتمامه بالفلسفة والأدب اليونانى ، برغم تفوقه فى الرياضيات .. حصل على الأجريجاسيون عام ١٨٨١ ، وعُين أستاذًا للفلسفة بالليسيه ، ثم بمدرسة المعلمين العليا .. انتخب فى عام ١٩٠١ عضوًا بأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، ثم عضواً بالأكاديمية الفرنسية .. رأس لجنة التعاون الفكرى التابعة لهيئة الأمم

المتحدة عقب تكوينها ، وحصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٢٨ .

لم ينكر « برجسون » تأثره بالفلاسفة الذين سبقوه : « أفلاطون » و« سبينوزا » و« شوبنهاور » و« لوك » و« هيوم » و« مل » و« بركلى » ، ولهذا استطاع أن يجمع « ثقافة الإنسانية الفلسفية » جمعاء ، وإنْ تَمَرَّدَ على المذاهب المثالية المطلقة ، مما دعا « سارتر » – فيما بعد – إلى إقامة مذهبه « الوجودى » على « البرجسونية » أو فلسفة « الإنسان والزمان والحرية » وعلاقة كل منها بالديمومة .. فقد ظل « برجسون » قلقاً على مصير الإنسان ، ولهذا عمل على الكشف عن نسيج وجوده وطبيعة صلاته بالجسم والمادة ، والمكانة التى يحتلها فى عالم المخلوقات ، وموقفه من التاريخ القديم والحضارة الحديثة .. ووجد « برجسون » أن الفلاسفة قد خلطوا بين المكان والزمان ، ولهذا عرف الزمان بأنه جوهر الوجود . وتساءل عن مصير الإنسانية – بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى – واثقاً فى انتصار القيم الروحية ، ضد قوى الشر والانحلال ، ودعاة المادية والآلية ، وأنصار البغى والظلم والعدوان .. وهذا ما بدا جليًّا فى كتابه « الطاقة الروحية » .. وهنا قرر أن « الديمومة » هى نسيج الحياة ، ومن خلالها يستطيع الإنسان أن يقول : « أنا أحيا فى الزمان إذن فأنا

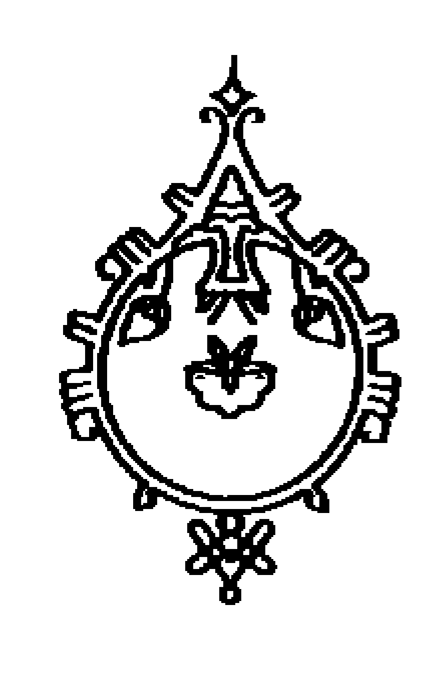
موجود » .. فإذا قلنا إنّ الأفلاطونية هى فلسفة المُثُل ، والديكارتية هى فلسفة الجَوْهر ، فإن البرجسونية هى فلسفة الديمومة ، وهذا ما ظهر فى كتابه « الديمومة والتأنى » .. واكتمل مذهبه عندما طلع عام ١٩٣٢ بكتابه الضخم « ينبوعا الأخلاق والدين » ، وهو دعوة للتصوف بعد أن اعتنق المسيحية الكاثوليكية ، وكان قد عاش حياته يهوديًّا غير متدين .

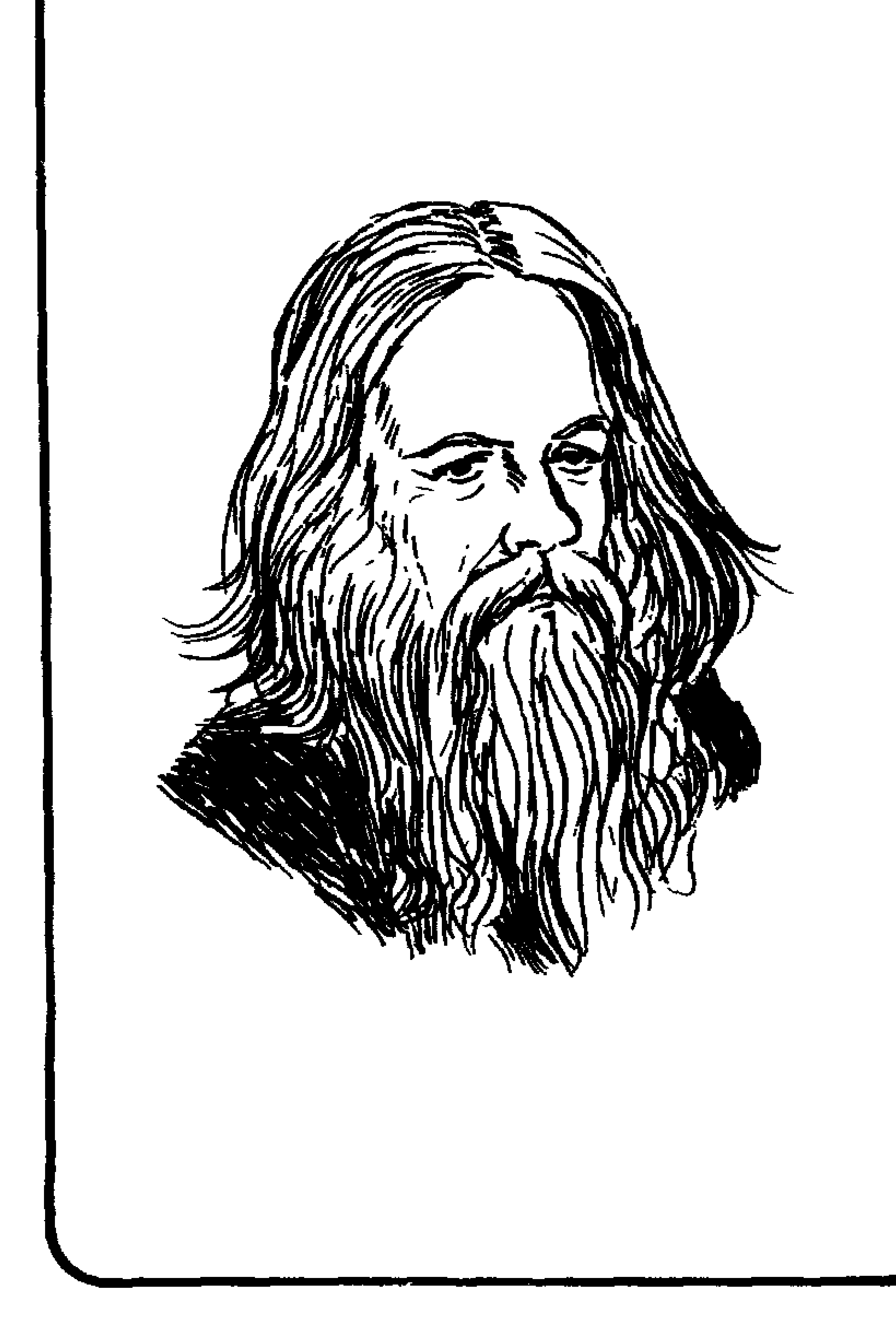
أما منهج « برجسون » فهو البحث عن « الحَدْس » أو ما أسماه « باسكال » بالقلب .. وقد حرص « برجسون » على التأكيد بأن حَدْسَه هو أقرب إلى التفكير العقلى الشاق منه إلى العاطفة الحسية المجردة .. وهذا ما فسره فى كتابيه « المادة والذاكرة » و« الفكر والتحرك » .. بهذا المنهج حقق نظريته فى « الديمومة » حتى إن « حدس الديمومة » عنده أصبح هو المحور الذى تدور حوله كل الفلسفة البرجسونية .. هذه النظرية وتلك الفلسفة تقودنا إلى « مشكلة الحرية » التى أثارها « برجسون » بعد أن أكد على « الأنا » أو « الذات » التى تحيا فى « الزمان » ، فالحرية عنده واقعة أولية ، وأن الفعل الحر بداية مطلقة ، وأن تلقائية الفعل الإرادى هى خير دليل على الحرية .

كما أن خير دليل على وجود الحركة هو التحرك نفسه ..

فالحرية ليست هى القدرة على الاختيار ، ولكنها النزوع إلى الاختيار المركب من العواطف .

وقد ظلت دراسات « برجسون » منحصرة فى نطاق علم النفس إلى أن شملت فى النهاية علم الحياة ، وعلم الكون ، والعلم الإلٰهى .. فهو يرى أن « الوجود » بالنسبة إلى الكائن الواعى إنما هو التغيُّر ، والتغير معناه النمو أو النضج ، والنضج هو أن يخلق الموجود ذاته بلا انقطاع . وهذه هى مرة أخرى « الديمومة » أو « الصيرورة » التى تشمل « الفعل » و« الشعور » و« الذاكرة » ، الذاكرة التى هى جوهر وجودنا ، لأنها امتداد الماضى فى الحاضر ، وهى التطور أو معنى الحياة من خلال ذلك الصراع المستمر بين الحياة والمادة .. أما خالق الحياة فهو الإلٰه الذى يستخرج الوجود من اللاوجود ، ويخلق « العالم » من « العدم » ، وتلك هى فكرة « القدرة الإلٰهية المطلقة » التى تَوصَّلَ إليها « برجسون » فى نهاية المطاف .





طاغور
وفلسفة الحب

١٨٦١ - ١٩٤١

طاغـور وفلسفـة الحـب
(١٨٦١ - ١٩٤١)

فى السادس من مايو عام ١٨٦١ ولد « رابندرانات طاغور » بكلكتا ، سليلاً لأسرة هندية من عِلْيَة القوم ، وأب كان زعيماً روحيًّا هو « ماهرشى ديفندرانات » .. كتب « رابندرانات » المقالات ونظم الشعر وهو فى الثامنة عشرة ، ووصلت مؤلفاته إلى أكثر من مائة وعشرين كتاباً ، بين قصة ورواية ، ومسرحية ، وديوان ، فضلاً عن عدد كبير من الصور الزيتية عرضت فى أهم عواصم العالم ، وثلاثة آلاف أغنية من تلحينه ، أبرزها نشيد الهند القومى .. أطلق عليه « غاندى » اسم « حارس الهند العظيم » ، كما أطلق عليه « نهرو » اسم .. إنسان الهند العظيم .. وتقديرًا لأعماله بما فيها من فكر وفن منح عام ١٩١٣ جائزة نوبل للآداب .. ولكنه

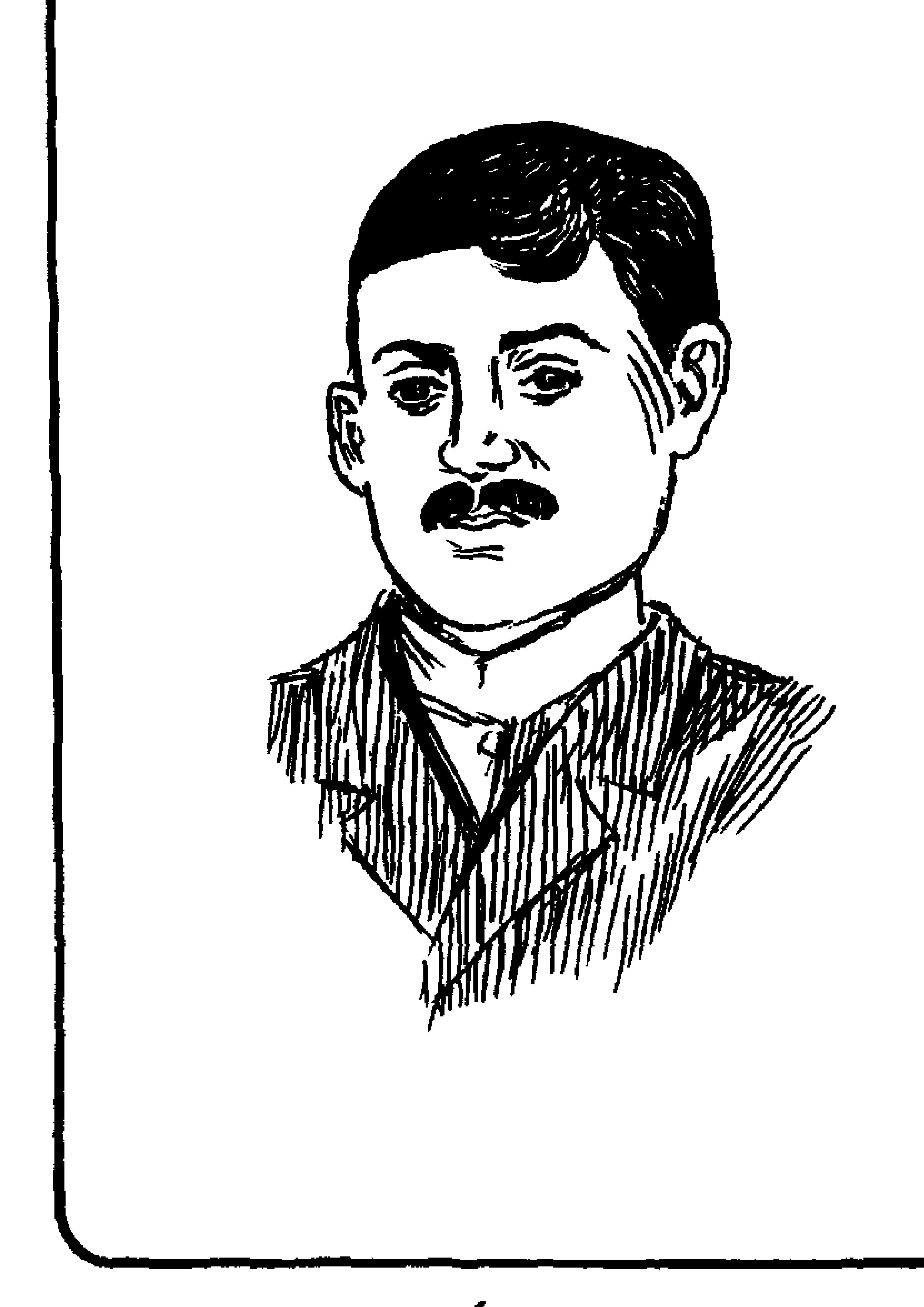
فقد فى فترة قصيرة متتابعة زوجته ، وابنته الكبرى ، وابنه الأصغر ، ووالده .. وتوفى « رابندرانات » فى السابع من أغسطس عام ١٩٤١ عن ثمانين عاماً .

قال عنه الشاعر البولندى « جانكوسكى » : إن طاغور واحد من القِلَّةِ التى وهبت أعمق الصلات بالله والحق والحقيقة المطلقة ، إنه يمضى فى الطريق إلى الله ، وإنه لأقرب الناس إلى حقيقته سبحانه . حقًا ، فقد كان « طاغور » يحلم بقيام العالمية الحقيقية ، لأن الحياة فى رأيه عيد كبير تسهم فيه كل أمة بإضاءة مصباحها فى سبيل تطور المعرفة الإنسانية ، وتقدم الإنسان .. ولأن الفرد هو أساس المجموع ، فقد نادى « طاغور » بحرية الفرد منطلقاً للحرية الجماعية .. ولذلك كان دائماً ضد تقسيم الإنسان إلى طبقات – برغم ثرائه – بسبب المال ، أو الحسب ، أو الدين ، أو اللون ، ففى رأيه أنه ليس هناك إلا تاريخ واحد هو تاريخ الإنسان .

كان « طاغور » مربياً فاضلاً ، أنشأ المدارس النموذجية وأطلق فيها حرية التلاميذ والأساتذة .. وتتلخص فلسفته التربوية فى الحرية ، والتعبير الذاتى الخلّاق ، والاتصال بالطبيعة ، والارتباط المباشر بالمجتمع .. كما تتلخص فلسفته الحياتية – وهو المصلح الملتزم الذى نادى بالعدالة الاجتماعية – فى أن الهدف الأوحد للحياة هو أن يسعى الإنسان نحو المعرفة

وتحقيق الذات .. وكذلك تتلخص فلسفته الإنسانية فى دعوته إلى السلام ونشر المحبة بين الناس ، وخاصة الفقراء منهم ، أو « أطفال الله الكبار » كما كان يسميهم .

أما فلسفة « طاغور » بشكل عام فقد كانت قائمة كلها على الحب ، قانون النفس العليا الذى يعانق الوجود كله ، وجود العالم فى الإنسان ، ووجود الإنسان فى العالم ، إذ يصبح الحب البشرى معبرًا إلى الحب الإلهى .. فالحب هو المعنى الأسمى لكل ما يحيط بنا .. فإذا كان نور الشمس يفتح باب الكون ، فإن نور الحب يفتح كنوز العالم ، ولذلك علينا أن نحب لكى نعمل ، وعلينا أن نعمل لكى نحب .. فالإيمان بالحب لايزعزعه ما قد يجلبه الحب من جراح وآلام ، لأن الحب هو بداية المعرفة ، كما أن النار هى بداية النور .. وحب « طاغور » يتجه إلى الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة والحياة والموت ، حُبٌّ جَوْهَرُهُ البراءة والبساطة اللتان تجعلان الطيور وأوراق الشجر تبدوان قريبتين من قلبه قربهما من قلوب الأطفال .. وهو حب إلهى وإنسانى معاً ، ذلك أن المستشرف الأعلى وقد تجلى فى الإنسان ، فأصبح للإنسان قداسته .. وأصبح طبيعيًّا أن تحمل كلمة « طاغور » الأخيرة هذا المعنى الصوفى ، إذ قال « أبْدَاً رحلتى خلو اليدين ، ولكن بقلب مفعم بالرجاء ، فأنا على يقين أنى سأحب الموت كما أحببت الحياة . »



قاسم أمين
وفلسفة القانون

١٨٦٣ - ١٩٠٨

قاسم أمين وفلسفة القانون
(١٨٦٣ - ١٩٠٨)

فى الثالث والعشرين من أبريل ١٩٠٨ توفى « قاسم أمين » عن خمسة وأربعين عاماً ، فقد ولد فى أول ديسمبر ١٨٦٣ بالإسكندرية برغم أصله التركى ، فوالده كان « أميرالايا » بالجيش ، أما أمه فكانت مصرية . أمضى طفولته فى إستنابول ، ولكنه عاد إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الخديوية ، ثم بمدرسة الحقوق التى تخرج فيها عام ١٨٨١ ، وكان أول دفعته ، فسافر فى بعثة إلى فرنسا ، وعاد بعدها ليعين فى سلك القضاء ، ويصل وهو فى الحادية والثلاثين إلى منصب المستشار .

كان « قاسم أمين » هائماً يبحث عن الروح لا عن المادة

فى الحب وفى الحياة ، ومن هنا كان تطبيقه لروح القانون دون نصوصه الجافة ، بغير تحايل ولاتخريجات ، منطلقاً دائماً من روح الشريعة الإسلامية فى تطبيق الأحكام التى اتسمت عنده بالتسامح والرأفة والغفران ، ومناصرة الضعفاء والمظلومين ، وتغليب الفضيلة على الرذيلة ، والخير على الشر . فكان بذلك مُحَلِّلاً نفسيًّا ومصلحاً اجتماعيًّا ، وليس مجرد قاضٍ يطبق أحكام القانون ، فهو يرى أن القانون ما وضع لزيادة المجرمين مجرماً ، وإنما لإنقاصهم مجرماً ، وإغلاق باب زنزانة .. ومن أحكامه الشهيرة تبرئة « عبدالله النديم » المكافح الوطنى بعد محاكمة استمرت تسع سنوات كاملة ، ومن هنا ظهرت وطنية « قاسم أمين » ساطعة جلية .

فالوطنية – عند قاسم أمين – أقدس من أن تدنس بطمع الجشعين ، وانتهاز المتقلبين ، هى دين جديد علينا أن نؤمن به ونعمل من أجله لا من أجل أنفسنا ، فَلَذَّةُ المرء ليست فى جمع المال ولا فى تسلق المنصب ، ولكن اللذة الحقيقية هى فى أن يكون المرء قوة عاملة من أجل الوطن .

وقد ناصر « قاسم أمين » وأيد الدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » التى كان جمال الدين الأفغانى ، و« محمد عبده » من أكبر دعاتها ، كما ناصر وأيد الدعوة إلى الوحدة الإسلامية التى كان سعد زغلول ومصطفى كامل من أكبر دعاتها .

ولهذا أسس الجمعية الخيرية الإسلامية بدرب الجماميز ، أما آخر ما فعله فهو خطابه الذى ألقاه قبل وفاته بأسبوع واحد يوضح فيه فكرة « الجامعة المصرية » التى عمل على إنشائها ، وافتتحت بالفعل فى العام نفسه .

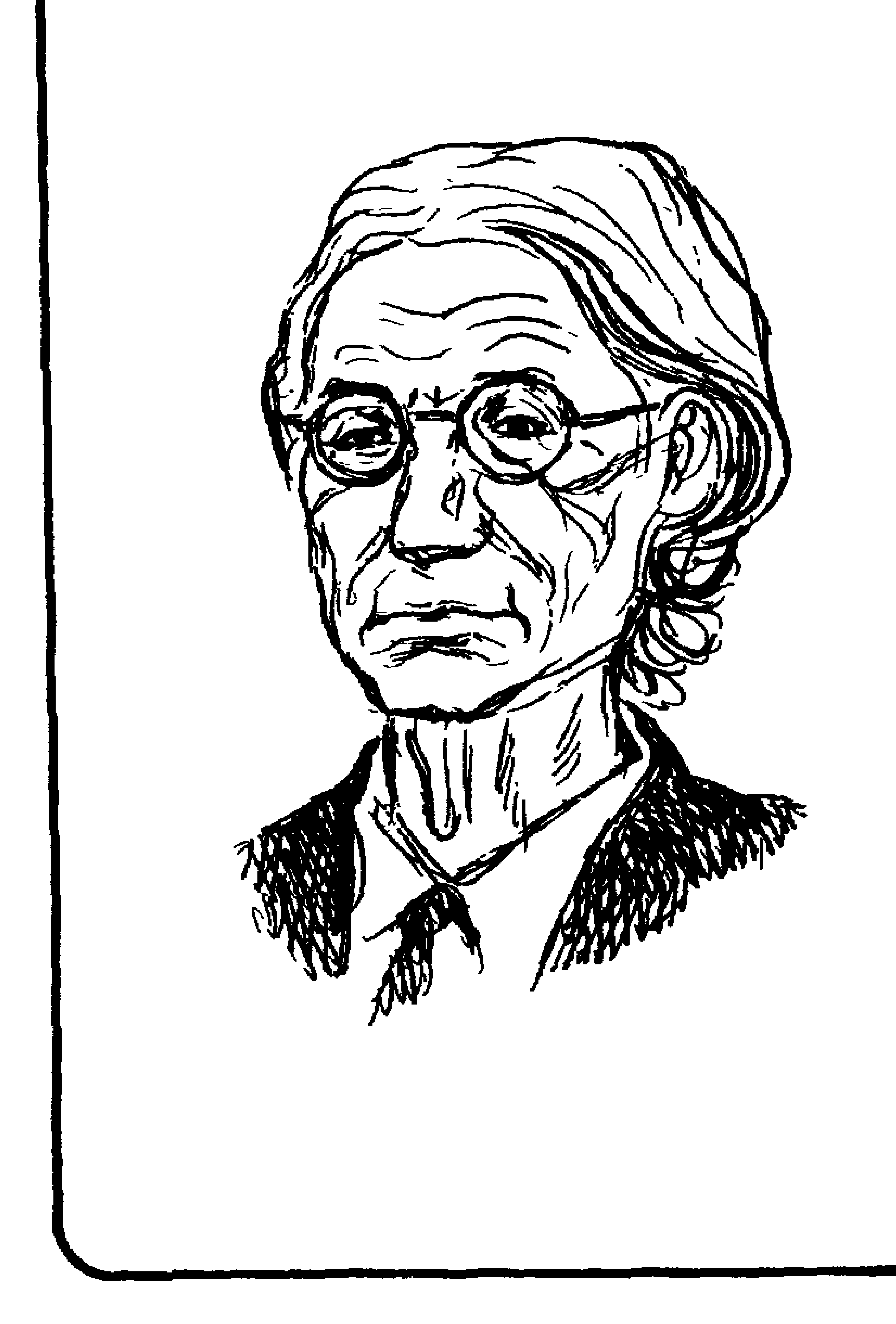
قبل أن يضع « قاسم أمين » كتابه الشهير « تحرير المرأة » كان قد وضع كتاباً أخر يرد فيه على مزاعم « الدوق داركور » وانتقاداته لمظاهر الحياة المصرية .. ولكنه عاد ليفيد من ملاحظات الدوق وهو يكتب مقالاته الإصلاحية فى « المؤيد » ، وخاصة فيما يتعلق بتعليم الفتاة وخروجها إلى العمل ، والاكتفاء بالحجاب الشرعى ، وإن كان « رفاعة الطهطاوى » قد سبقه إلى المناداة بتعليم الفتاة ، كما سبقه « محمد عبده » إلى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل ، ومع هذا لم يدعُ « قاسم أمين » إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل إلا فى حالات الضرورة ، وفى وظيفة شريفة .

ويخطىء من يظن أن « قاسم أمين » قد دعا إلى « سفور المرأة » فقد اكتفى بتخفيف الحجاب فى حدود ما اتفق عليه الأئمة ، وهو سفور الوجه واليدين .. فكيف تقبلُ المرأة زوجاً لها ، وكيف تبيع أملاكها ، وكيف تزاول عملاً تعيش منه ، تجارة أو زراعة أو صناعة ، وهى مغلقة من رأسها إلى قدميها ، لاتقدر على التحرك فى قيدها ؟!

ولاشك أن المرأة التى تحافظ على شرفها وهى مطلقة غير محجبة لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها ، لأن عفتها اختيارية وليست قهرية .. وعلى هذا لايصبح طبيعيًا أن نفتخر بعفة نسائنا وهن سجينات ، مع أن السجن وحده لايمنع المرأة - إذا أرادت - من فقدان هذه العفة .. والغريب بعد ذلك - كما يقول قاسم أمين - أنه لايوجد فينا رجل يثق بامرأة .

أثار « تحرير المرأة » ضجة كبيرة وهُوجِم « محرر المرأة » هجوماً عنيفاً .. وقد ظهرت كتب عديدة خرجت تتهمه بالمروق من الدين وتحريض النساء على الفساد ، كتاب واحد أنصفه لطلعت حرب ، وكتاب المرأة الجديدة الذى رد فيه على أعدائه .

وكما أراد « قاسم أمين » أن يحرر المرأة من قيودها المتزمتة ، حرر أسلوب الكتابة من قيوده المفتعلة .. وكما ترك « مصطفى كامل » من بعده « محمد فريد » ليواصل رسالته الوطنية ترك « قاسم أمين » من بعده « هدى شعراوى » لتكمل رسالته الإصلاحية .



برتراند راسل وفلسفة السلام

١٨٧٢ - ١٩٧٠

برتراند راسـل وفلسفـة السـلام
(١٨٧٢ - ١٩٧٠)

الفيلسوف البريطانى « برتراند أرثر وليم إيرال راسل الثالث » توفى فى الثانى من فبراير عام ١٩٧٠ ، وكان قد ولد عام ١٨٧٢ ، أى أنه قارب مائة عام من حياة أتاحت له أن يكون شيخ الفلاسفة بحق ، وانقطاع خالص للفكر سمح له بأن يكون عالماً ومفكرًا وفيلسوفاً وسياسيًّا فى آن واحد .. مات أبواه كلاهما ولما يبلغ الرابعة من عمره ، وتولت تربيته جدته لأمه ، وهى ليدى راسل . وكان أبوه عضوًا فى البرلمان ، وصديقاً للفيلسوف « جون ستيوارت مل » الذى كان بمثابة الأب فى العماد لبرتراند ، فتعلم منه بعض الآراء التى كانت تصدم الناس فى ذلك الوقت ، ومنها « حق المرأة فى الانتخاب ، وتحديد النسل » .

واهتم راسل فى دراسته بالتاريخ الإنجليزى ، وصراع الشعب ضد الملك للحصول على الحرية الدستورية ، وبنظريات إقليدس الهندسية ومعارضتها . أما فى الأدب فلم يُعجب إلا بشعر « شيلى » . والتحق « راسل » بجامعة كمبردج ، وتتلمذ على يدى « وايتهد » وما إنْ تخرج من الجامعة عام ١٨٩٤ حتى عمل ملحقاً بالسفارة البريطانية بباريس ، تزوج فى العام التالى من أمريكية فلادلفية ، وعاشا فترة فى مقاطعة « سكس » داخل كوخ متفرغاً لدراسة الفلسفة والرياضة والاقتصاد والسياسة والتاريخ أيضاً ، فقد كان يملك من المال ما يغنيه عن الوظيفة بقيودها وأعبائها . زار روسيا عام ١٩٢٠ فعاد ثائرًا على « الشيوعية » وإن كان قد تعلَّم من زيارته للصين الإيمان بالمستقبل .

من أهم ما استحدثه « راسل » فلسفة العلم ، وبصفة خاصة « الفلسفة الرياضية » ، فإذا كانت الرياضة تستخدم الرموز والعلامات فإن الفلسفة الرياضية هى تحليل هذه الرموز وتلك العلامات ، وتحليل « العدد » أمر حديث العهد فى التاريخ ، تماماً مثل الصفر الذى لم يعرفه قدماء اليونان والرومان وإنْ عرفه قدماء العرب ، وهذا يبين أن الرياضة استمرار للمنطق . وهكذا برز كتابه الضخم « مبادئ الرياضة » وبحثه عن « الرياضيات وما وراء الطبيعة » ،

وتلخيصه لنظرية أينشتاين فى « ألف باء النسبية » ثم « المدخل إلى الفلسفة الرياضية » وتحليل المادة .

تعددت مؤلفات « راسل » فى الفلسفة العقلية فأصدر « مجمل الفلسفة » وتحليل العقل والمنطق والمعرفة ، وبحث فى معنى الحقيقة والمعرفة الإنسانية ومشاكل الفلسفة ، ثم تاريخ الفلسفة الغربية والتصوف والمنطق .

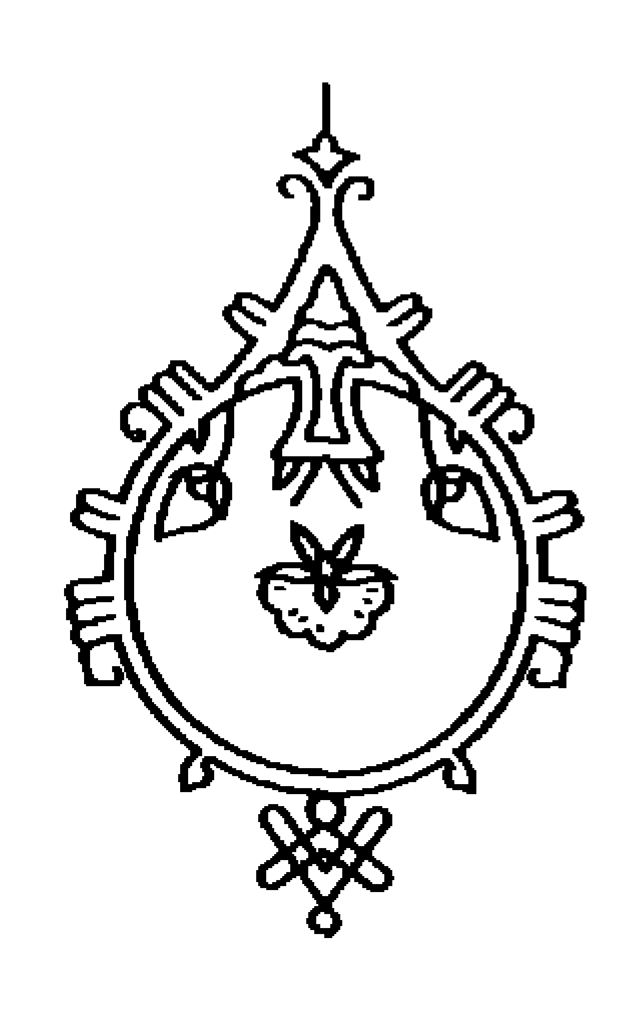
وتدور كل هذه المؤلفات حول عقل الإنسان وقدرته على إدراك ظواهر الوجود ، وقد قرب « راسل » هذه المشاكل الفلسفية المعقدة حتى إلى مفهوم رجل الشارع العادى .

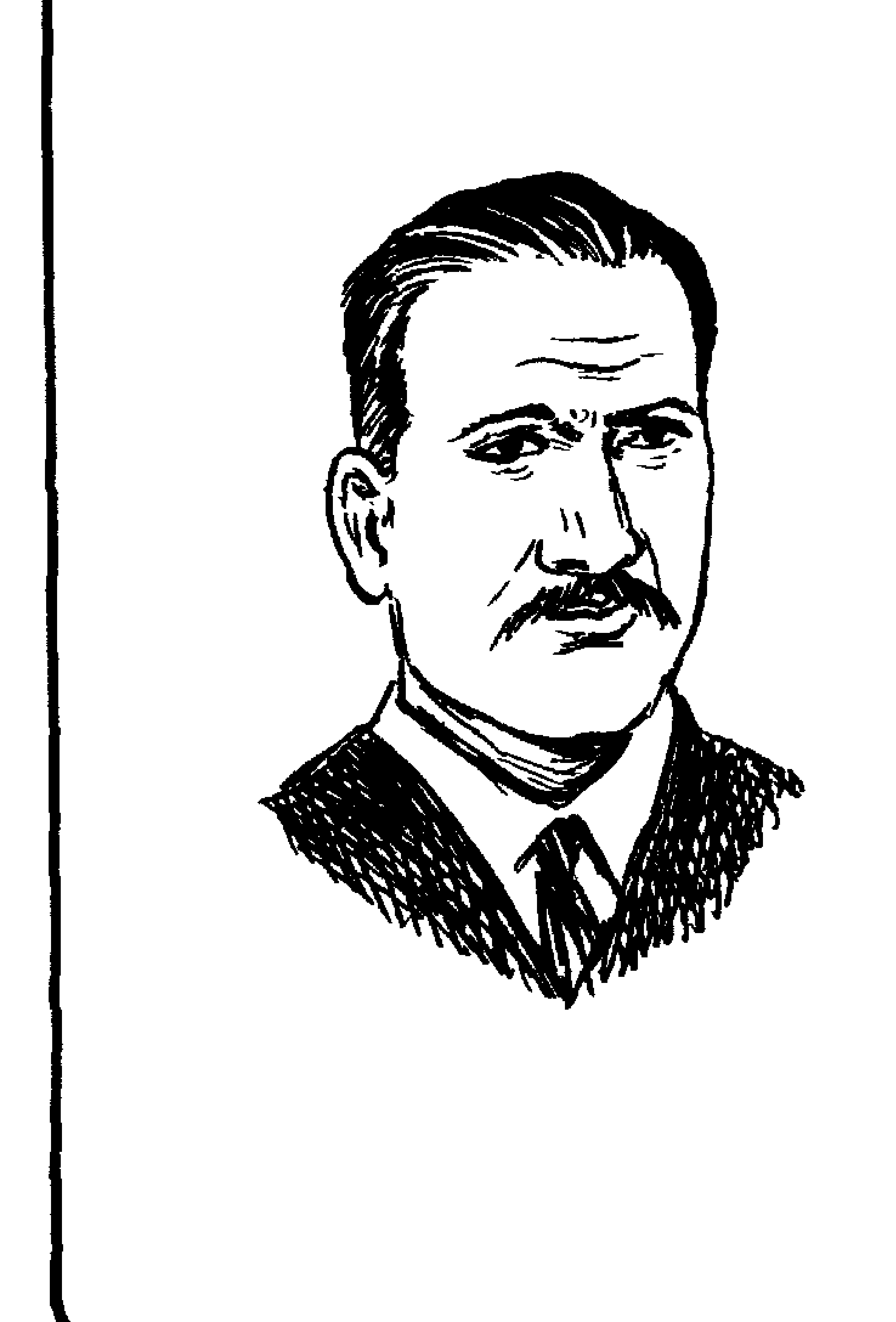
أما ما عرف رجل الشارع براسل فهى مواقفه التى حمل فيها مسئولية الفكر والكلمة ، ودفع فيها ضريبتهما ، فقد ترك مجلس اللوردات إلى غياهب السجن ، وجرد من لقب اللورد وعزل من الجامعة ، وعقد مؤتمرًا اشترك فيه الآلاف من العلماء والأدباء لمناهضة التجارب الذرية ، وتحذير الحكومات من الدمار الذى ينتظر العالم ، وقد كتب نداء وقع عليه « أينشتاين » لأنه البديل ، وهو الحل ، وهكذا كتب « آمال جديدة » لعالم متغير . ولعل أشهر مواقفه هى تلك التى انصبت فى « محكمة راسل » التى عقدها عام ١٩٦٦ برئاسة « سارتر » لإدانة الحرب الفيتنامية ، ومحاكمة مرتكبى

جرائمها من رؤساء وحكومات . وكانت هذه « المحكمة » هى ثمرة المؤسسة العالمية للسلام التى أنشأها عام ١٩٦٣ على نفقته الخاصة ، وكذلك إدانته للعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وخطابه لكل من خروشوف وأيزنهاور عام ١٩٥٨ دفاعاً عن السلام العالمى .

حصل « راسل » على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ اعترافاً بفضله على الإنسانية ، وإسهامه فى رسالة العدالة والحرية والتسامح والسلام .

وقد رثى « راسل » نفسه بقوله : « بموت راسل انقطعت حلقة تربط حاضرنا بالماضى البعيد ، ولكن ما من مفكر صائب الرأى يستطيع أن يعترف بأن الذين ماتوا دفاعاً عن الحق فى الكفاح الهائل قد ماتوا عبثًا » .





إقبال
والفلسفة الصوفية

١٨٧٣ - ١٩٣٨

إقبـال والفلسفـة الصوفيـة
(١٨٧٣ - ١٩٣٨)

فجعت الهند والعالم الإسلامى بأسره ، فى موت فيلسوف الصوفية وصوفى الفلاسفة الشاعر « محمد إقبال » عن خمسة وستين عاماً ، فى الحادى والعشرين من أبريل عام ١٩٣٨ بالتحديد ... وكان « إقبال » قد ولد عام ١٨٧٣ فى مدينة سيالكوت الهندية ، ثم نال ليسانس الفلسفة من جامعة لاهور التى نصب للتدريس بها ، كما نال الدكتوراه من جامعة كمبردج فى فلسفة الأخلاق ، فضلا عن إجادته للغة الألمانية التى تعلمها فى ألمانيا ، ودراسته للقانون ، ثم عمله بالمحاماة طوال حياته .. ومع هذا لم يكف عن نظم الشعر والتعريف بالفلسفة الإسلامية .

دعا « إقبال » إلى تجديد الفكر الدينى الإسلامى ، فجعل

الفلسفة قلب دعوته ، والشعر قالبها ، والتصوف روحها الخفاق .

كُلُّ شَعْبٍ قام يبنـــى نَهْضَةً
وأرى بُنْيَانكـــم مُنْقَسِمـــا
فى قَديــمِ الدَّهْــرِ كُنتم أُمــةً
لَهْفَ نَفْسِى كيف صِرْتُم أُمَمًا ؟!

وأصدر « إقبال » تسعة دواوين باللغتين : الفارسية والأُردية ، أبرزها جميعاً ديوانه الأول « أسرار خودى » أو « أسرار الذات » .. وفكرته عن « الذات » هى المحور الذى ترتكز عليه فلسفته ، والذى يدور فى فلكه إنتاجه كله ، شعرًا كان أو أدباً ، تصوفاً أو فلسفة ، اجتماعاً أو سياسة ، علماً أو حتى فى القانون .. ولعله أفاد من نظرية الألمانى « نيتشه » فى « الإنسان الكامل » وآراء الفرنسى « برجسون » فى « منبعا الأخلاق والدين » وخطرات ونفحات الفارسى « جلال الدين الرومى » فى « الصوفية » .

هى فلسفة أمل وعمل ، وكرامة وحرية .. فإقبال يدعو إلى إثبات الذات لانفيها ، وتفجير كل ما فيها من قوى إيجابية خَلاَّقة ، قادرة على أن تحقق لها الحرية والاستقلال ، مع أن الذات لاتتحقق إلا فى الجماعة التى تنتظم الأفراد وتمكنهم من بلوغ الكمال .

لقد استطاع « إقبال » أن يقيم العلاقة بين الله والإنسان .. فإذا كانت ذات الله هى الذات الكاملة التى لاتشبهها ذات أخرى على الإطلاق ، كان المثل الأعلى أمام الإنسان هو أن يتخلق بأخلاق الله ، وأن يسود الأرض التى سخرها له الله ، لأنه خليفة الله فى الأرض .

أما ذات الإنسان فتكمل أو تنقص بمقدار قُربها أو بُعدها عن ذات الله ، قرباً لايفنى الذات الإنسانية فى الذات الإلٰهية ، كما تؤمن بعض المذاهب الصوفية ، ولكنه قرب صوفى يؤمن بالثبوت والبقاء ، كما يؤمن بأن العالم مظهر لجمال الله وحكمته وإرادته .. فالعالم ليس خطيئة ، إنما هو أداة لامتحان الذات ، معيار كل شىء ، الخير والشر ، والجمال والقبح ، والحق والباطل .

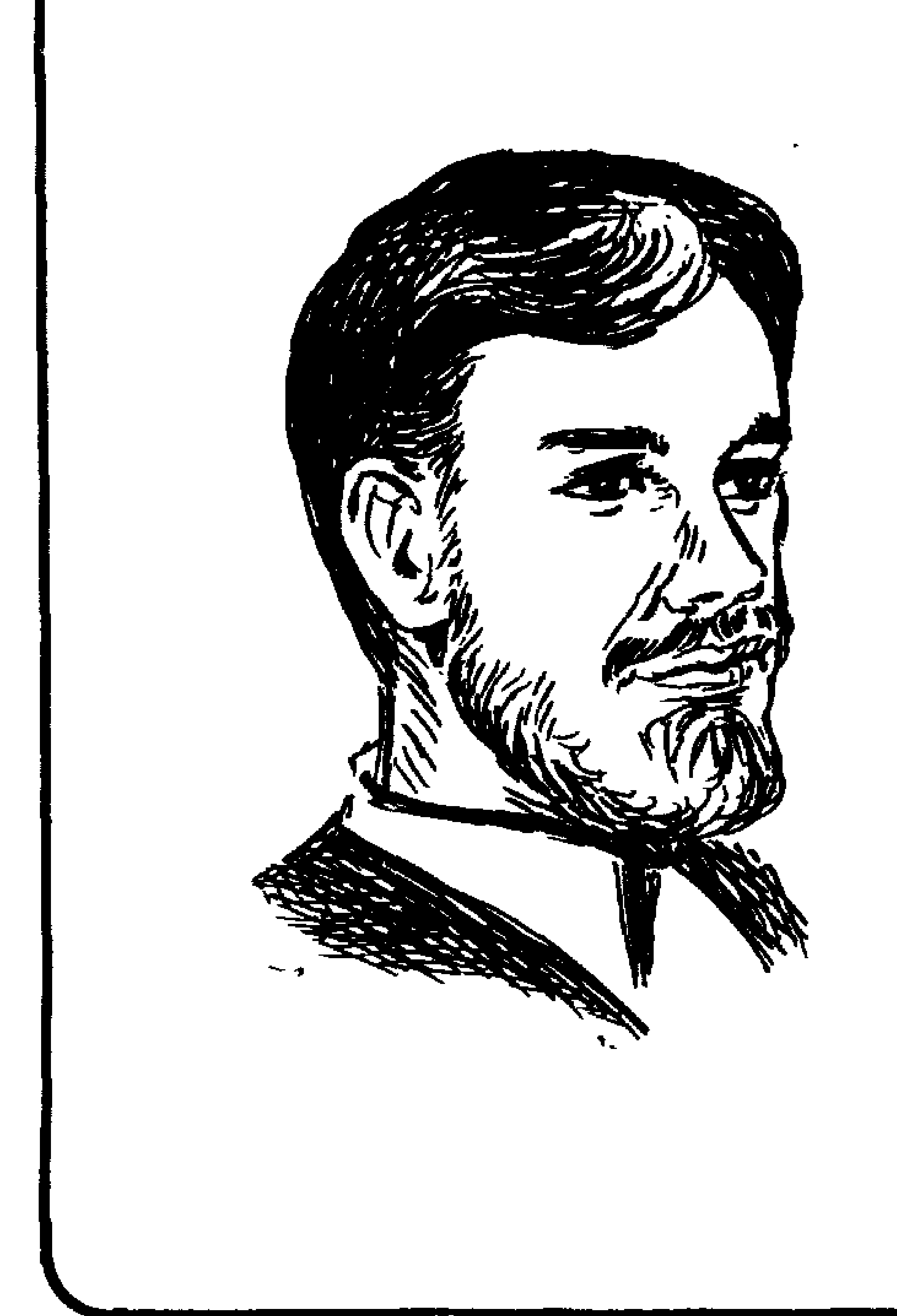
وعلى هذا يعارض « إقبال » الذين يدعون أن عالم المادة وَهْمٌ باطل وضلال مبين .. فيكفى عالم المادة أنه من خلق الله ، شأنه شأن العوالم الأخرى غير المادية ، وأبرزها جميعاً عالم الروح .

هذه الفلسفة هى فى حقيقتها فلسفة إسلامية خالصة ، استوحاها « إقبال » من تعاليم الإسلام ومن سيرة النبى الكريم ، الذى حقق ذاته بحيث أصبحت أكمل الذوات

وأكثرها قرباً من ذات الله .. وعظمة ذات النبى هى فى أنه « خاتم النبيين » .. وفكرة « ختام النبوة » من أعظم الأفكار فى تعاليم الإسلام ، لأن النبوة ببلوغها الكمال الأعظم تلغى النبوة نفسها ، لإدراكها استحالة اعتماد الوجود إلى الأبد على فرد يقوده .. وهكذا يبطل الإسلام الرهبنة ويدعو إلى مناشدة العقل والاعتماد على وسائله ..

على المسلم إذَنْ أن يَصِلَ حاضره بماضيه ، وأن يعيد بناء حياته الفكرية والاجتماعية فى ضوء تعاليم الإسلام .. ويتابع التطور ويلاحق التجدد ليواكب العصر .. وهى رسالة عزة وتفاؤل يوجهها شاعر الجمال والجلال ، وفيلسوف السلام والإسلام « محمد إقبال » ، الذى أحس الحياة فأخضعها وقهرها ، وأحس ما بعد الحياة فاستقبله وتقبله :

إنِّـى مسلـمٌ لا أَرْهَبُ المَـوْتَ
إذا جاءَ الموتُ لقيتُـه مبتسمـاً



لورانس
وفلسفة الفن

١٨٨٥ - ١٩٣٠

لورانـــس وفلسفـة الفــن
(١٨٨٥ - ١٩٣٠)

فى الثانى من مارس عام ١٩٣٠ رحل « ديفيد هربرت لورانس » الذى ولد عام ١٨٨٥ فى إحدى قرى نوتنجهام بإنجلترا . تأثر « لورانس » بنشأته الفقيرة المتواضعة وسط عمال المناجم الذين كان والده واحدًا منهم ، فعبر عن هذا الجو ودافع عنه فى رسائله ورواياته ، كما تأثر باتجاه « فرويد » فى التحليل النفسى ، ولهذا تميزت رواياته بالتحليل الدقيق لنوازع الإنسانية وغرائزها الطبيعية الصادقة التى كاد المجتمع الصناعى يقضى عليها .

ولكنه جاهد قبل ذلك ليتعلم ويفوز بجائزة دراسية أتاحت له فرصة الالتحاق بالجامعة ، وبعد التخرج داهمته الأحداث ، فأُصِيب بالتهاب رئوى ، وصُدِم فى موت أمه ، حتى إنه فكر فى

الانتحار ، وتزوج من سيدة ألمانية يسرت أمامه سبل الحياة الخاصة وإن تسببت فى ازدراء مواطنيه له أثناء الحرب العالمية الأولى ، على اعتبار أنها من جنس الأعداء ، أما هو فلم يشترك فى الحرب ، لأنه كان يمقتها ويقول : « هذه الحضارة تنهار بعد ألفى عام ، وهذه حضارة الموت والتخريف » . وكان يعجب لهؤلاء الأحياء الذين يطلبون الموت ، والأجدر بهم أن يطلبوا الحياة . ويقول : « لابد أن أوربا تنتحر وتموت » . وفى أعقاب الحرب هجر بلاده إلى الأبد ، هجرها إلى إيطاليا ، ثم إلى أستراليا والمكسيك حتى عاد إلى أوربا الفتية برغم ما أصابها من شيخوخة مبكرة .

أما مفتاح شخصية « لورانس » ففى أعماله العدائية التى تكاد تكون ترجمة كاملة لهذا الروائى عليل الجسم والروح : « أبناء وعشاق » ١٩١٣ ، و« قوس قزح » ١٩١٥ و« نساء عاشقات » ١٩٢١ ، و« عشيق الليدى تشاترلى » ١٩٢٨ .

ولورانس لم يكن مثل غيره من الأدباء أديبًا فحسب ، ولكنه كان أيضاً صاحب سيرة ، أى أنه كتب فملأت شهرته الآفاق ، وعاش فملأت سيرته الحياة ، ومن هنا برز كواحد من أعظم كُتَّاب الرواية على مر العصور ، لأنه كان أيضاً صاحب نظرية وصاحب رسالة . وتتلخص نظرية لورانس فى أن : « كل ما هو ذاتى الحياة هو ذاتى » تلك العبارة الموجزة هى التى تفرق بين

الأديب بشكل عام ، والروائى بشكل خاص ، وكل من رجل الدين الذى يتحدث عن الأرواح – حتى فى السماء – والفيلسوف الذى يفكر فى اللانهائية ، والنفس الخالصة المدركة لكل شىء ، والعَالِم الذى يضع الإنسان تحت المجهر ولايراه إلا مجموعة أجزاء .

رجل الدين يرغب فى تقديم نفسه كغذاء روحى للجماهير ، والفيلسوف لايرى الوجود إلا كلمات وأفكارًا ونظراتٍ وأمانى ، فهو يحلم لنفسه وللآخرين بالفردوس ، والعالم يتعامل مع جسم الإنسان دون أن يدرك سر روحه وعقله ومشاعره .

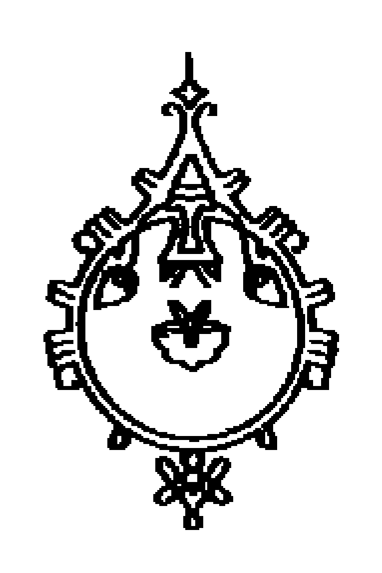
أما الروائى فهو يرى أن « الكل أعظم من الجزء » ، وأن الإنسان الحى أعظم من روحه ونفسه وعقله ووعيه . والرواية هى كتاب الحياة المشرق ، ففيها لاتستطيع الشخصيات أن تفعل شيئاً إلا أن تحيا بخيرها وشرها وأهوائها ، وإلا توقفت عن الحياة .. فالناس يذهبون أحياناً إلى الصحراء لمناجاة الله ، وأحياناً يذهبون إلى الصحراء للبحث عن المال ، وفى غير الصحراء يبحث الناس عن المال والإصلاح السياسى ، والتبشير بالحب اللانهائى ، مع أن الحياة ليست هى كل هذا ، أو ليست هذا فحسب .

ووظيفة الفن هى الكشف عن العلاقة بين الإنسان وبين عالمه

فى مكان وزمان محددين .. ورجال الدين والفلاسفة والعلماء يسعون جميعاً إلى تثبيت الأشياء لتحقيق مبدأ التوازن .. رجل الدين مشغول بالإله الواحد ، والفيلسوف مشغول بالأفكار الجامدة ، والعالِم مشغول بالقوانين الدقيقة .. أما الروائى فيرى التوازن فى الميزان العادل ، ذلك الذى لايرجح كفة على أخرى ، أى لايرجح الخير والحق والجمال على الشر والباطل والقبح ، لأن الحياة وعاء لكل هذه الصفات مجتمعة ، وكل ما عداها من صفات متناقضة ومتعارضة .

أما رسالة « لورانس » ، فهى الحب ، وهى رفع ستار الخفايا والخبايا عن الحب ، وتعليم الناس كيف يحبون فى عالم تسوده الكراهية .

هذه الرسالة هى التى دفعت « لورانس » إلى أدب عظيم يتميز طابعه بالثراء وبالبقاء .





أحمد أمين
وفلسفة التراث

١٨٨٦ - ١٩٥٤

أحمد أمين وفلسفة التراث
(١٨٨٦ - ١٩٥٤)

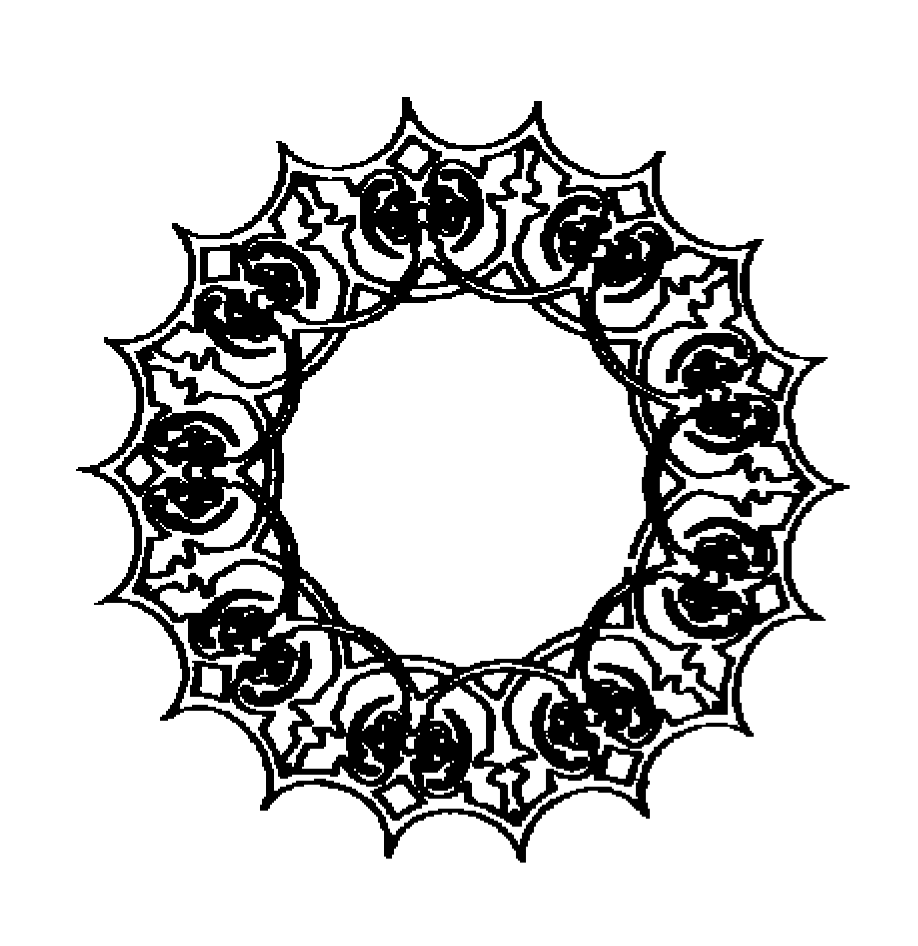
فى أول أكتوبر عام ١٨٨٦ ولد الشيخ الدكتور « أحمد أمين » بحى الخليفة بالقاهرة .. علمه والده « الشيخ إبراهيم » الوافد من قرية « سمخراط » بالبحيرة ، القراءة قبل أن يرسله إلى « كتَّاب » بنباقادن ليحفظ القرآن الكريم .. ولما شب الفتى اطلع على الكتب والمخطوطات التى كان ينسخها والده بهدف حفظ التراث وصيانته ، فأقبل على دراسته بالأزهر ، ولكنه ترك الدراسة للتدريس بطنطا ، ثم بالإسكندرية ، ثم بالقاهرة . والتحق بمدرسة القضاء الشرعى وتخرج فيها عام ١٩١١ ، ودرس فيها حتى استقر فى كلية الآداب عام ١٩٢٦ حتى أصبح عميدًا لها عام ١٩٣٦ ، وكان قد تنقل فى المحاكم قاضياً شرعيًّا عُرِفَ بالعدل والإنصاف ، حتى تُوفى فى ٣٠ مايو عام ١٩٥٤ .

لم ينبهر بالحضارة الغربية ولم يرفضها ، فى الوقت الذى تمسك فيه بالتقاليد الشرقية والتراثين : الإسلامى والعربى ... ويعد « أحمد أمين » من الرواد العرب الأوائل الذين انتزعوا من المستشرقين مهمة تحقيق التراث والتعليق عليه ، سواء كان مدوناً فى مخطوطات ثمينة أو منشورًا فى مطبوعات قديمة ، حفاظاً على تاريخنا الذى كاد أن يندثر ، وإحياء لحضارتنا التى تكاد تضيع .. وقاد « أحمد أمين » الرأى الذى يقول بتحقيق التراث الجدير بالنشر فقط ، والذى له صلة بالثقافة المعاصرة ، دون إضاعة للوقت والجهد فى تحقيق آلاف المخطوطات التى لاتصلح مضامينها ولاأساليبها لزماننا الحاضر .. وعلى هذا بدأ باختيار قصة « حى بن يقظان » للفيلسوف الأندلسى « ابن طفيل » أستاذ الفيلسوف الشهير « ابن رشد » ، لِما فى هذه القصة من عناصر أساسية وعامة شبيهة بقصة « روسو » المعروفة « إميل أو التربية » ، ثم أشرك معه مجموعة كبيرة من المحققين الذين تمرسوا بهذا العمل الدقيق ، منهم : د. شوقى ضيق ، ود . إحسان عباس فى « فريدة القصر وخريدة العصر » للأصفهانى ، وإبراهيم الأبيارى ، وأحمد الزين فى « العقد الفريد » ، وعبد السلام هارون وعدد من المحققين فى البلاد العربية فى مقدمتها سورية والعراق والمغرب ولبنان ، وناصر الدين الأسد وعبدالله كنون ومحمد يوسف نجم ..

وكما أسهم فى إحياء التراث بالتحقيق والتعليق أسهم أيضاً فى ترسيخ الفكر الدينى بدراساته الإسلامية المعاصرة : « فَجر الإسلام » ، « ضُحَى الإسلام » ، « ظُهْر الإسلام » و« يَوْم الإسلام » .. فقد أدرك « أحمد أمين » منذ البداية أن « الإصلاح الاجتماعى » لايمكن أن يستقيم إلا تأسيساً على « الإصلاح الدينى » وخاصة بعد أن تزعزع إيمان الناس نتيجة للاستعمار والتخطيط السياسى ، ولهذا أصدر كتابه الهام « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » وفيه قدم عشرة من أبرز المصلحين فى الإسلام ، تشكل نزعاتهم الإصلاحية مجتمعة رؤية واحدة موحدة لما كان يصبو إليه « أحمد أمين » كمصلح معاصر جاء بعد هؤلاء جميعاً ، وفى وقت تحتاج فيه الأمة الإسلامية والعربية إلى كثير من الإصلاح فى أمورها الدينية والدنيوية معاً .. وكان يهدف إلى تجديد دعوة الإصلاح التى نادى بها هؤلاء المصلحون من « محمد بن عبد الوهاب » فى الجزيرة العربية إلى « محمد عبده » و« عبدالله النديم » و« على مبارك » فى مصر ، مارا بتركيا « مدحت باشا » ، والهند « أحمد خان » و« أمير على » و« أفغانستان » « جمال الدين الأفغانى » وتونس « خير الدين التونسى » وسوريا « عبد الرحمن الكواكبى » .

وهكذا ترك « أحمد أمين » أثاراً كثيرة فى الدراسات

الإسلامية والعربية ، تتميز بالتفكير المنطقى السليم ، والمنهج النقدى القويم ، والتحليل الفلسفى الدقيق ، فضلا عن المقارنة والتعقيب والتفسير ، كما وضح تأثيره الكبير على العرب والمستشرقين الذين أفادوا من طريقته الفريدة فى البحث العلمى واستخراج النصوص ، وتنسيق الصور والفصول .. أما دعوته الإصلاحية فكانت الامتداد التاريخى والطبيعى لكل الدعوات الحضارية التجديدية ، تطويرًا لحياتنا الفكرية ، وتأصيلاً لتراثنا المجيد .





هيكل
وفلسفة التجديد

١٨٨٨ - ١٩٥٦

هيكــل وفلسفــة التجديــد
(١٨٨٨ - ١٩٥٦)

فى اليوم العشرين من أغسطس عام ١٨٨٨ ولد « محمد حسين هيكل » بالسنبلاوين بالقرب من المنصورة ، لأبوين ريفيين ولكن متيسرين .. أدخله والده العمدة « كتَّاب القرية » ليتم حفظ القرآن ، ثم أرسله إلى القاهرة ليحصل على البكالوريا من المدرسة الخديوية عام ١٩٠٥ .. وكان يقضى إجازته السنوية فى القرية يقرأ ويكتب ويحرر مجلة « الفضيلة » الحائطية .. والتحق « هيكل » بمدرسة الحقوق ، وكانت تربطه صلة نسب بأستاذ الجيل « أحمد لطفى السيد » فاتصل به وكتب فى جريدته « الجريدة » عن « تحرير المرأة » ، كما نشر بها روايته الشهيرة « زينب » مسلسلة بتوقيع « مصرى فلاح » ، تفادياً لثائرة الإقطاعيين .. وحصل « هيكل » على

الدكتوراه فى القانون من الجامعة الفرنسية ، وهو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره .

رأس « هيكل » تحرير جريدة السياسة ، والسياسة الأسبوعية ، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ، ثم عين وزيرًا للدولة ، فوزيرًا للمعارف فى ثلاث وزارات متتالية ، حتى اختير رئيساً لمجلس الشيوخ .. وفى عهد الثورة أخذ يكتب فى جريدة « الأخبار » حتى رحيله فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٥٦ عن (٦٨) عاماً .

نادى هيكل بالديمقراطية على أساس أنها تلائم المزاج المصرى والطبيعة المصرية ، بل والدين الإسلامى أيضاً ، فهو دين تتوزع فيه الثروة بحكم التوريث توزيعاً يحول دون تكدسها أو بقائها فى يد أسرة بالذات ، ويفتح باب المجهود الذاتى بذلك واسعاً ، مع دعوة التعاليم الإسلامية إلى ما تدعو إليه الديمقراطية من حقوق الأفراد فى حرية الفكر وفى التعليم ، وفى السعى والعمل .. وطبيعة هذه البلاد تتفق مع هذه التعاليم وتُعَاوِن عليها .. فهذا النهر الذى يسقى الناس جميعاً ، ويخصب الأرض جميعاً ، ويبعث الحياة من مائة حيثما جرى ، وهذه الشمس التى لاتضن على أحد بنورها ودفئها ، وبما فى أشعتها من أسباب النشاط والصحة ، وهذا الوادى المنبسط ، والصحراء المنبسطة فيها ووراءه ، ذلك كله يوائم التفكير

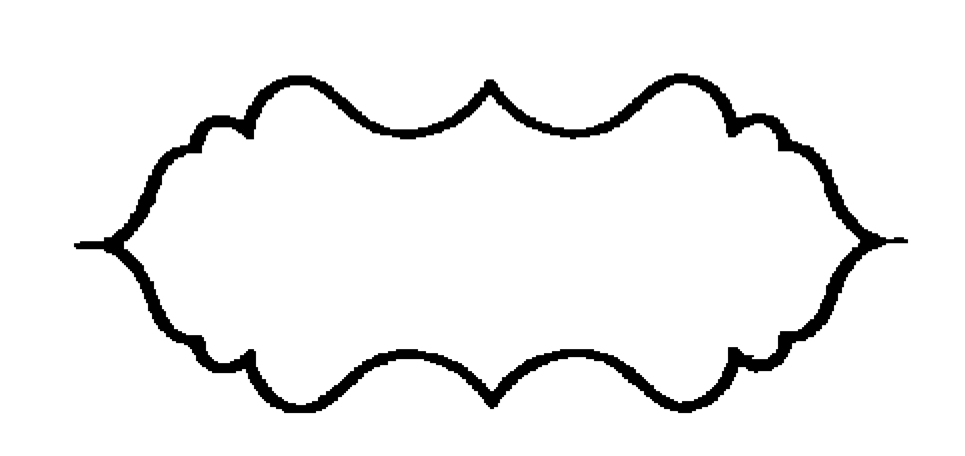
الديمقراطى ، ويمتزج أشد الامتزاج معه ، وهو على العكس من ذلك ، ينفر من التحكم أشد النفور ، ولهذا لم يستطع متحكم أن يرغم شعب مصر على غير ما يريده ، ولم يحتج هذا الشعب إلى الثورات الدموية الجامحة ليتغلب على خصومه ، لأن طبيعته تعاونه على المتحكمين فى أمره ، وتضطرهم برغم ما يكون لديهم من أسباب القوة والبطش للتفاهم وإياه لأَخْذِهِ بالحُسْنَى . ثم النزول لإرادته ، فإن لم يفعلوا نبذتهم الطبيعة المصرية ، فلم يبقوا فى الوادى إلا ريثما ينصرفون عن مُوَدَّعِين من الشعب بالمقت والاحتقار .

ونادى « هيكل » بالتجديد والتحرر اجتماعيًّا وسياسيًّا ، وعلى المستوى الأدبى أيضاً ، نتيجة لاحتكاكه بالشعب الفرنسى وإعجابه بأدباء فرنسا ، واقتناعه بتعاليم « الثورة الفرنسية » ، والأساس فى كل ذلك هو « حب الحرية » والنزعة نحو « التجديد » .. وقد كانت دعوة « تحرير المرأة » تتزايد ، ودعوة التجديد فى مدرسة السياسة الفكرية تتصدى لحزبى المحافظة معاً : الوفد ، والوطنى . ودعوة العدالة الاجتماعية تجد صداها فى الكتابة الأدبية المتأثرة حيناً بكتّاب الغرب مثل « روسو » ، وحيناً آخر بمصلحينا الأساتذة والأئمة معاً .

وعندما تولدت « الثورة الفكرية » من ثورة ١٩١٩

السياسية كان هيكل من أوائل وأكثر المفكرين الذين يقصرون الدعوة على حرية الفكر والرأى فى السياسة والأدب ، بل نادى بحرية البحث حتى فى الدين ، دون أن يكون ذلك تجديفاً وإلحادًا ، اقتناعاً منه ، ونتيجة لدراساته الفلسفية بأن الشك هو الطريق الأمثل والقويم للإيمان ، أو روح الإيمان كما تحدث عنها فى كتابيه « حياة محمد » و« منزل الوحى » .

وهكذا خرج « محمد حسين هيكل » المفكر العربى الإسلامى بتلك المعادلة الحضارية والإنسانية التى تجمع بين « عقل الغرب » و« إلهام الشرق » فى إطار عصرى من التوحيد والتجديد والحرية .





العقــــاد
وفلسفة الإسلام

١٨٨٩ - ١٩٦٤

العقــاد وفلسفــة الإســلام
(١٨٨٩ - ١٩٦٤)

فى الثالث عشر من مارس ١٩٦٤ رحل عن عالمنا عبقرى العبقريات ، المدافع عن الإسلام والسلام « عباس محمود العقاد » ليستقر فى أسوان ، حيث ولد فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٨٩ . جاء إلى القاهرة وهو فى الخامسة عشرة لايحمل غير « الابتدائية » وبدلا من أن يلتحق بوظيفة أو يستكمل دراسته تفرغ للقراءة والكتابة ، وعاش منهما ولهما دون زوجة أو ولد ، فبدأ بالكتابة للصحف ، وانتهى إلى إصدار (٨٥) كتاباً فى الأدب والفن والعلم والمعارف الإنسانية والإسلامية واهتم بالسياسة ، ووطد صداقته بسعد زغلول ، فأسهم فى تحريك ثورة ١٩١٩ ، ثم بمصطفى النحاس ، فانتخب مرتين عضوًا فى مجلس النواب ، وعين

مرتين عضوًا فى مجلس الشيوخ . حارب من أجل الدستور وإرساء الحياة النيابية ، فأصاب هجومه « الملك فؤاد » نفسه عندما قال قولته الشهيرة : « إن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس يتعرض لحرياته » فهُوجِمَ فى رزقه ، وسُجن تسعة أشهر .

وكانت للعقاد معارك فكرية كثيرة وثرية ، مع مصطفى صادق الرافعى ، وأمين الرافعى ، وأحمد شوقى ، وطه حسين ، وزكى مبارك ، ومحمد حسين هيكل ، ولطفى السيد ، ومكرم عبيد ، وتوفيق الحكيم . كما كانت له – على الوجه الآخر – تراجم تاريخية تحليلية عن عباقرة الإسلام « محمد » من الأنبياء . وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، من الخلفاء . وخالد ، ومعاوية ، وفاطمة ، والحسين ، من الصحابة . والغزالى ، وابن رشد ، وابن سينا ، ومحمد عبده ، من المفكرين ، وبلال ، وسلمان ، وصهيب ، من النُّسَّاك . والحلاَّج ، والسهروردى ، وابن عربى ، من الصوفية .

وقد دافع العقاد عن الإسلام دفاعاً مجيدًا ، لا من حيث هو دين حنيف فحسب ، ولكن من حيث هو فكر قويم أيضاً ، وهذا ما يتجلى فى كتبه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » و« مطلع النور » ، و« ما يقال عن الإسلام » . ووضع العقاد

فلسفة الإسلام وموقف الدين الإسلامى من الإنسان والقَدَر والشيطان والعبادة والمعاملة والديمقراطية والأمة والمرأة ، وهذا ما يظهر جليا فى كتابيه : « الإنسان فى القرآن » و « المرأة فى القرآن » . وكما كان العقاد من دعاة العلم فهو أيضاً من دعاة الإيمان ، إذ يقول : « إذا كان الإسلام لم يعطل العقل والفكر ، وقد أطلقهما إلى أوسع الحدود فلايمكن أن يضيق بالفلسفة التى تفكر فى حقائق الأشياء ، طالما أن التفكير فى السمٰوات والأرض من فرائض الإسلام المتواترة » .

فقد حاول « العقاد » من كل هذا أن يصل إلى « أيديولوجية إسلامية » تقف فى مواجهة الاشتراكية والرأسمالية على السواء .

يؤمن « العقاد » بأن الروح هى حقيقة الوجود ، وأن الجوهر هو الأصل الكامن وراء الظاهر ، أما المادة فهى الوسيلة . وهو لايرى مثل الأقدمين أن « الروح حركة لاكثافة فيها ، والمادة كثافة لاحركة فيها » لأن الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لاتقاس عنده بمقياس الأرقام والأنابيب . كما أن حركة التاريخ لم تستقم فى أى اتجاه كما استقامت فى اتجاه الحرية الفردية ، متخذة من ثلاثية أفلاطون المثالية « الحق ، والخير ، والجمال » شعلة تستنير بها . ويسلم « العقاد » بأن الوجود أو الموجود شىء أعم وأشمل من المعرفة

أو « المعروف » ، فالتفكير العلمى هو القدرة على ملاحظة التجارب المحسوسة ، والتفكير الرياضى هو القدرة على تصور الافتراضات المجردة .

ويرى العقاد أن الأخلاق تعتمد على الضمير الذى قوامه الصراحة والوفاء والإخاء والسلام ، والذى يستهدى بفكرة « الأمر الجازم » دون تنصُّل من مسئولية أو فرار من واجب . والأخلاق عنده تعنى « الغيرية » لا« الأنانية » . ويجد العقاد أن الجمال فى الفهم والطبيعة معنوى وليس شكليًّا ، فالأشكال لاتعجبنا إلا لمعنى تحركه أو توحى به ، والجمال غير حرية الإرادة والاختيار التى تميز بدورها الإنسان عن سائر الكائنات والموجودات . ولهذا أطلق « الدكتور زكى نجيب محمود » على « العقاد » هذه التفرقة « أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدب » .

أليس هو القائل :

خلعت اسمى على الدنيا ورسمى   فلا أنعى رحيلى أو مقامى



تــويــنبى
وفلسفة التاريخ

١٨٨٩ - ١٩٧٥

توينبى وفلسفة التاريخ
(١٨٨٩ - ١٩٧٥)

هو واحد من أبرز الأصوات العالمية التى طالبت بحل مشكلة الشعب الفلسطينى كشرط لتحقيق سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ، إنه المؤرخ الإنجليزى « أرنولد جوزيف توينبى » الذى وُلد فى الرابع عشر من أبريل عام ١٨٨٩ بلندن .. تعلم وعلم بجامعة أكسفورد ، ووصل إلى قمة التخصص فى التاريخ ، ووعيه بفلسفته فى أشهر مؤلفاته « دراسة فى التاريخ » وفيه يفسر قيام الحضارات على أساس « التحدى والاستجابة » مستنكرًا فكرة قيام التاريخ على فلسفة قدرية أو ثقافية أو أخلاقية ، مؤمناً بأن القوى النفسية وليست القوى المادية هى التى تسير مجرى التاريخ فى حياة الشعوب والأمم .

أشاد « توينبى » فى بحثه « مركز العالم الإسلامى » بالإسلام ، نظرًا لأن تعاليمه السمحة أزالت فروق الجنس واللون بين الناس . وفى دراسته لتاريخ الأديان يمزج توينبى بين « أمون رع » و« يهوا » و« سقراط » و« كونفشيوس » و« المسيح » و« محمد » . ويفسر فكرة التعبد الدينى مبيناً أن الإنسان بدأ بعبادة الطبيعة ، ثم تطور إلى عبادة الحقيقة المجردة الممثلة فى فكرة الرب أو الإله .

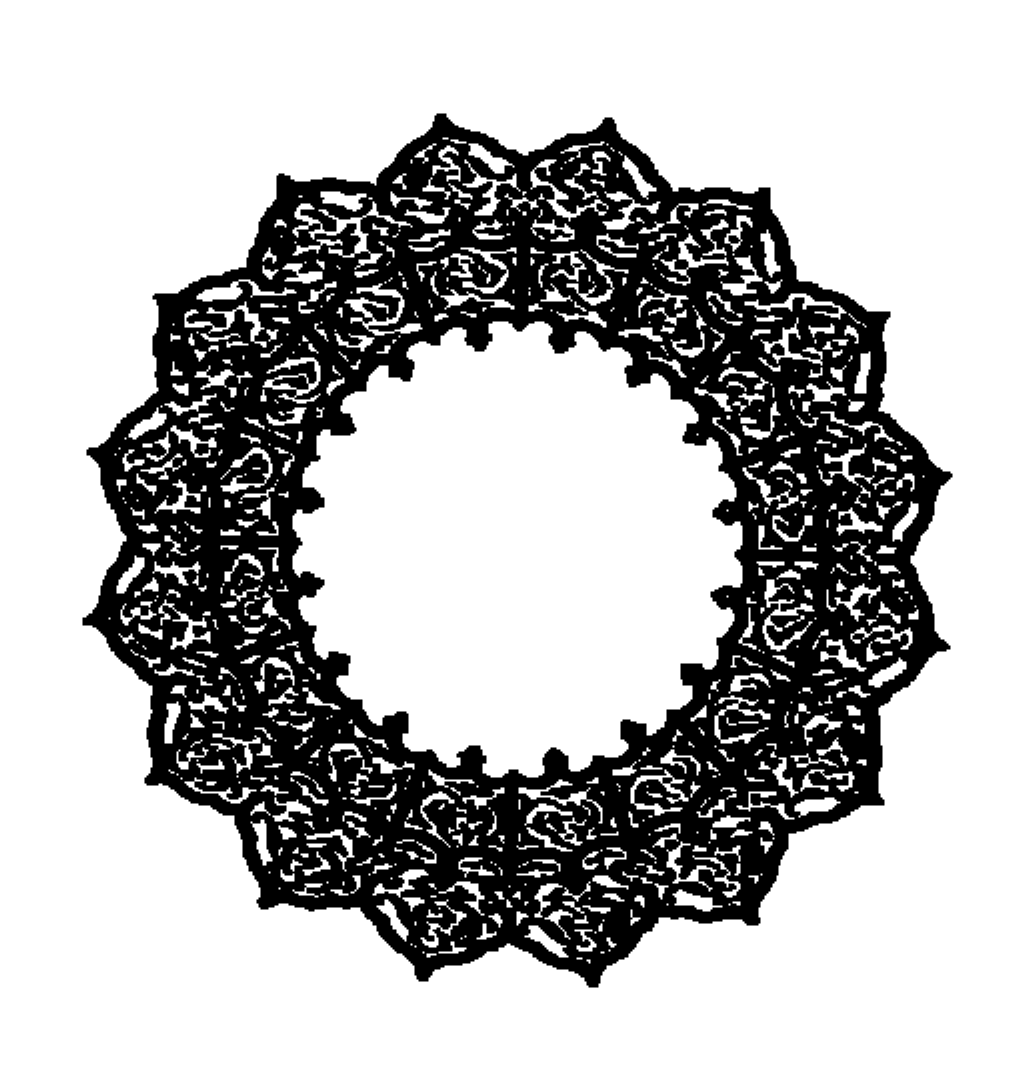
ويعارض « توينبى » فكرة أن اليهود هم شعب الله المختار ، ويتهم الصهيونية بأنها حركة تحاول أن تحقق بالقوة وعدًا دينيًّا بالعودة إلى أرض فلسطين ، أو إسرائيل كما يطلقون عليها . أما الثقافة اليهودية فتعد – فى رأيه – بقايا متحجرة من العصور القديمة . وقد ندد « توينبى » بالأعمال الوحشية التى قام بها الصهيونيون ضد عرب فلسطين ، تلك الأعمال التى تفوق فى وحشيتها أعمال النازية ضد اليهود ، ويقول : من المؤسف للإنسانية حقاً أن أناسًا كاليهود ذاقوا العذاب والألم على يد النازية يُذِيقُونَ غيرهم ذات العذاب والألم . ويستنكر « توينبى » الحرب واستخدام السلاح كوسيلة لإقرار السلام فى العالم . ووقف ضد عدوان ١٩٥٦ الثلاثى على مصر ، واستنكر العدوان الأمريكى على فيتنام ، وهاجم مؤامرة حرب ١٩٦٧ ، ونادى باستقلال الجزائر وكل الشعوب

المُسْتَعْمَرَة ، وندد بالتدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ، وطالب بالانسحاب من الجنوب العربى ، وتصدى لسياسة التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا ، ومع هذا ناصر « انتصار أكتوبر » كسبيل وحيد لفرض الحل السلمى عن طريق العمل العسكرى .

وتتلخص « فلسفة التاريخ » عند توينبى « فى تحقيق الذات » وكفاح الأشخاص والشعوب المستمر من أجل أشياء أعظم ، ليست هى القوة ولاهى الغرور والأنانية ، وإنما تتمثل هذه الأشياء الأعظم فى البقاء والتحدى والحضارة الثقافية والروحية المبدعة ، علماً بأن القواعد التى تنطبق على الحضارات وتختلف عن تلك التى تنطبق على الأجناس ، ذلك أن الحضارة الحقة هى التى تنهض بعد تدهور وتزداد ازدهارًا بعد طول اضمحلال ، بعكس الحضارة الفقاعية التى لاتقوم على أسس قوية ، فيسهل ضربها ويسهل اختفاؤها . ويؤمن « توينبى » بأن البشرية تتجه الآن إلى فصل جديد من تاريخها سيقع فيه عبء الاختيار ، لابين عالم موحد وعالم منقسم ، وإنما بين أن يعيش فى ظل عالم واحد ، وألا يكون هناك عالم على الإطلاق . ولكنه يؤكد على ثقته من أن الجنس البشرى سيختار الحياة والخير بدلا من الموت والشر ، ولذلك فإن المستقبل سيكون للعالم الواحد ، حيث يختفى التعصب

العقائدى ، وتحل القيم التى تتفق عليها جميع الأديان ، وحيث تختفى الحدود المصطنعة سياسيًّا لتنشأ القوميات الكبيرة ، تمهيدًا لقيام حكومة عالمية واحدة ، وحيث يختفى التخصص ، لكى تحل محله النظرة الشاملة الواعية للشئون الإنسانية .

وأخيرًا يفرق « توينبى » - الذى رحل عن عالمنا فى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٥ - بين الذين يصنعهم التاريخ ، وهؤلاء العظماء الذين يصنعون التاريخ .





طه حسين
وفلسفة المنهج

١٨٨٩ - ١٩٧٣

طـه حسـين وفلسفة المنهج
(١٨٨٩ - ١٩٧٣)

أربعة وتسعون سنة إلا قليلاً مرت على مولد « طه حسين » فى الرابع عشر من نوفمبر ١٨٨٩ بقرية عزبة الكيلو بمغاغة ، وقد توفى فى القاهرة فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ ..

أدخله والده الشيخ الفقير - الذى أنجبت له زوجته ثلاثة عشر ولدًا وبنتاً هو سابعهم - « كتَّاب » القرية بعد أن فقد بصره وهو فى الثالثة من عمره ليحفظ القرآن الكريم .. انتقل قبل أن يبلغ الثامنة إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر إلى جانب شقيقه الأكبر ، وظل فيه عشر سنوات ، تركه بعدها إلى الجامعة الأهلية ، حيث حصل على أول دكتوراه عام ١٩١٤

عن رسالته « فى ذكرى أبى العلاء » .. ثم سافر إلى فرنسا وحصل على دكتوراه أخرى بالفرنسية فى « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » من جامعة مونبلييه .. وتزوج عام ١٩١٧ من زميلته الفرنسية ورفيقة حياته وكفاحه وأمجاده « سوزان » التى أنجبت له « مؤنس » و« أمينة » .. عُيِّنَ أستاذًا للأدب العربى فى كلية الآداب ، ثم عميدًا لها ، ثم مديرًا للجامعة ، فوزيرًا للمعارف ، ومع هذا كانت شخصيته أقوى دائماً من كل مناصبه .

كتب « طه حسين » فى صحف « مصر الفتاة » و« الجريدة » و« العلم » و« الهداية » الشعر العمودى والحر ، والمقالة الأدبية والسياسية ، والقصة القصيرة والطويلة ، والنقد النظرى والتطبيقى ، فأسس المدرسة الأدبية الحديثة التى تنادى بالبحث العلمى كأساس للدراسات ، وبالحرية والقوة والانطلاق كمنهج للتفكير . وأثار لأول مرة معركة القديم والحديث فى الأدب ، والتى كانت بداية الانتفاض والبعث الأدبى .. كما أثار كتابه « فى الشعر الجاهلى » ثائرة خصومه الذين أشاعوا أن آراءه منافية لروح الدين ، وأن صاحبه كافر .

كان طه حسين مؤمناً بأن حرية الكاتب لايمكن تقييدها بقيود ، وأن الإيمان بمبدأ يستلزم الدفاع عنه ، مهما كلف

صاحبه من جهد وجهاد .. ولولا تمسكه بقيم الفكر لَمَا استطاع أن يوفق بين التراث الغربى والتراث الشرقى ، وأن يحافظ على التوازن المثمر بينهما .

فإذا كان « عميد الأدب العربى » يدين بالكثير للفكر الفرنسى ، فإن الفكر الفرنسى مدين له بالكثير .. أجيال وأجيال إذن هنا وهناك تدين له ، فقد كان همزة الوصل الناضجة والواعية والراسخة بين الثقافتين الكبريين .. أما الثقافتان اليونانية واللاتينية فقد قرنهما بعصر النضج كحلقة فى تطور ثقافتنا المعاصرة وفكرنا الحديث .. ولذلك وجد المستشرقون فى أعمال « طه حسين » الأدبية صورة حيَّة من الأدب الذاتى فى شكله المعاصر ..

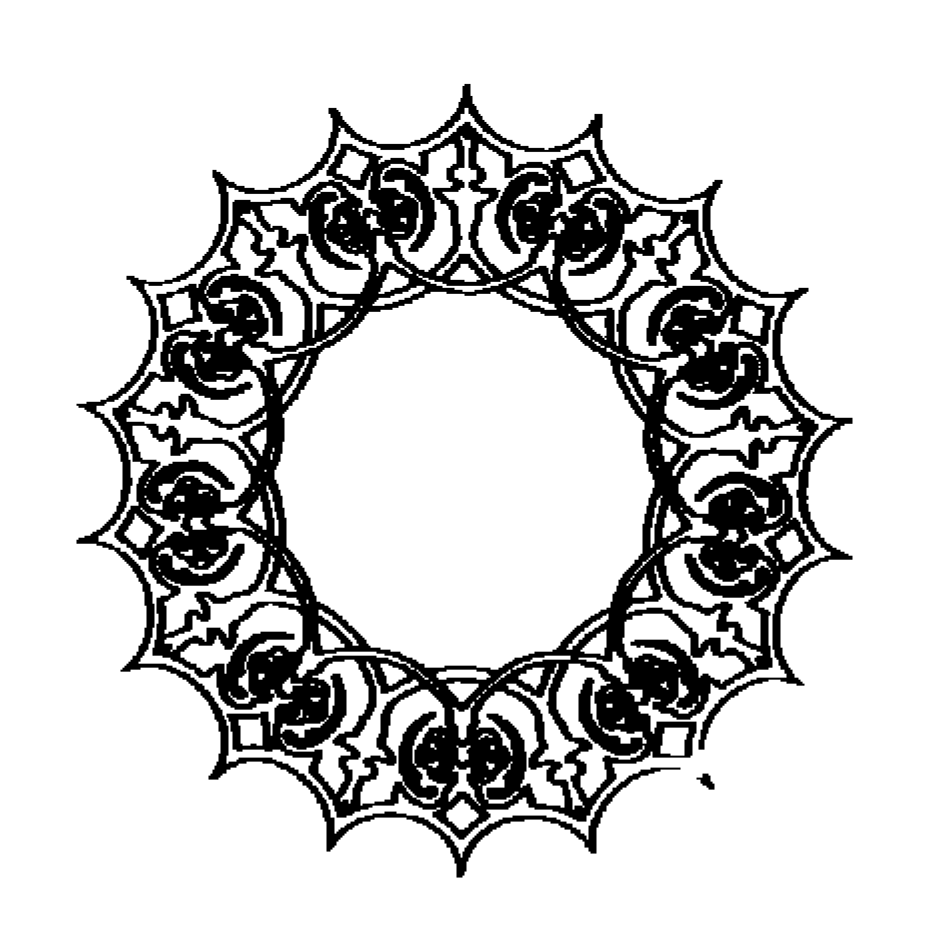
وضع « طه حسين » فى كتابه المهم « مستقبل الثقافة فى مصر » برنامجاً عمليًّا فى نظم التعليم حتى تلحق مصر بركب العلم والمعرفة ، ومن هنا كانت دعوته المدوية والشهيرة بأن يصبح العلم كالماء والهواء حقًّا لكل مصرى ، فكانت مجانية التعليم هى أولى خطوات برنامجه الثقافى الواسع النطاق والآفاق .. وكما دعا إلى تحرير الإنسان بشكل عام ، وإنسان وطنه بشكل خاص من الجهل ، دعا أيضاً إلى تحريرهما من الفقر والمرض .

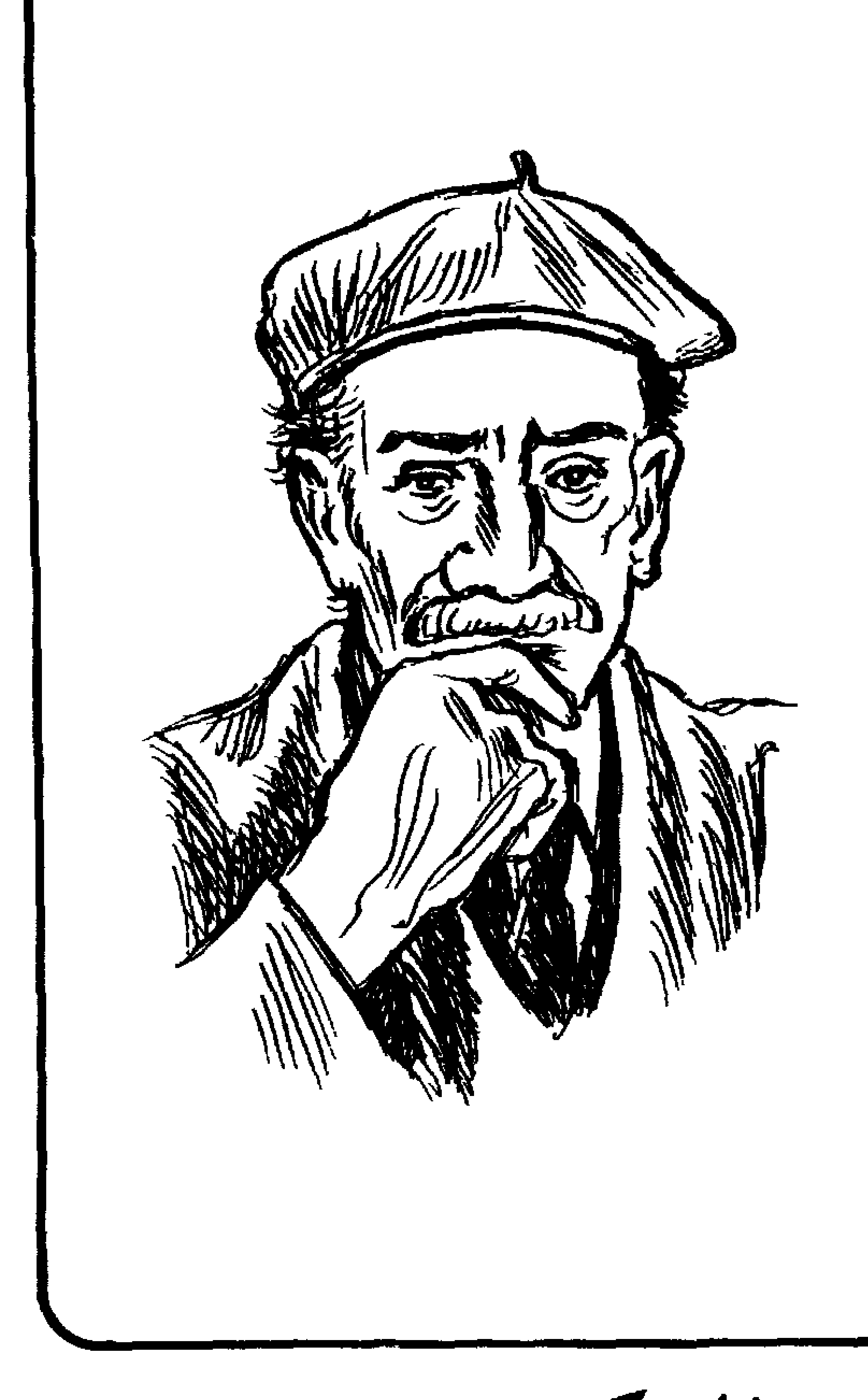
التجديد فى الفكر ، والتجديد فى المجتمع ، هما الثورتان المتعاقبتان المتصلتان فى حياة « طه حسين » ، فبعد تعميم التعليم وتأميمه طالب برفع الظلم عن الطبقات المعدمة والكادحة استنادًا إلى الدعوة الإسلامية فى جوهرها وصميمها .. ومن هنا جاء اهتمامه بالدراسات الإسلامية من ناحية ، وارتباطه بالأحزاب السياسية الشعبية من ناحية أخرى ، فهو يريد أن يتصل بالجماهير العريضة حتى يصل إليها بدون أن يتعالى عليها ، لأنه يفكر لها وليس لطبقة متميزة من عِلْيَة القوم وصفوة المجتمع .

لقد انتهج « طه حسين » منهج الشك الديكارتى وقواعده المؤكدة ، التى تعصم ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ ، وتهديه إلى بلوغ الصواب ، ولهذا انتهى باليقين الكامل إلى الإيمان المطلق .. واستحدث المنهج الاجتماعى فى تحليل الشخصيات الفكرية والأدبية ، كما فى كتابيه : « قادة الفكر » و« الفتنة الكبرى » .. وهو إذ يجارى أسلوب « الجاحظ » فى سخريته إنما يضفى عليه عقل « فولتير » الراجح وروحه النافذة .

وهكذا تندلع ثورة « طه حسين » الثالثة ، وهى إرساء قواعد المنهج العقلانى فى فكرنا العربى .. أما الفلسفة – عنده – فإن صاحبها هو من يجمع الحكمة علماً وعملاً ،

وتكون حياته موافقة لنتائج بحثه .. و« طه حسين » نفسه فيلسوف بهذا المعنى ذاته ، وليس فيلسوفاً بالمعنى التقليدى للكلمة ، فحياته هى فكره وفكرنا ، وفكره هو حياته وحياتنا .





الحكيم ..
والفلسفة التعادلية

١٨٩٨ - ١٩٨٧

الحكيم .. والفلسفة التعادلية
(١٨٩٨ - ١٩٨٧)

يبلغ شيخ مفكرينا « توفيق الحكيم » عامه التاسع والثمانين - قبل رحيله فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٨٧ - وكان لايزال فى قمة عطائه الفكرى والأدبى ، برغم شدة بخله المادى . ولعله يطبق بهذا - وعلى نفسه - فلسفته التعادلية ، فأسرته كانت ميسورة قبل مولده فى التاسع من أكتوبر عام ١٨٩٨ بالإسكندرية ، وظلت كذلك بعد حصوله على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٤ ، وانخراطه فى السلك القضائى متبعاً خطوات والده الذى وصل إلى منصب القاضى ثم المستشار .. ولكن الحكيم كان مشغوفاً بالحركة الوطنية وبالمسرح .. فاشترك مع الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، وكتب للمسرح أكثر من مسرحية تهاجم الإنجليز « الضيف

الثقيل » وتعالج مشكلات المرأة والمجتمع « المرأة الجديدة » و« جنسنا اللطيف » و« الخروج من الجنة » و« على بابا » .

انزعج والداه من هذا الاتجاه ، فعمل على إبعاده فى باريس بحجة حصوله على الدكتوراه ، وهناك وجد « الحكيم » فرصة أكبر لإشباع مواهبه وإنضاج فنه وفكره .. وعاد بعد ثلاث سنوات مخيباً ظن والديه ، وإن عمل سبع سنوات وكيلاً للنائب العام فى المحاكم المختلطة ثم الأهلية ، كان نتاجها جميعاً « يوميات نائب فى الأرياف » و« ذكريات الفن والعدالة » .. كما كان نتاج باريس « عصفور من الشرق » و« زهرة العمر » .

وانتقل « الحكيم » من السلك القضائى إلى العمل الحكومى بوزارتى المعارف والشئون ، حتى استقال عام ١٩٤٣ ليلتحق بأخبار اليوم على مدى ثمانى سنوات ، عين بعدها مديرًا لدار الكتب ، ثم عضوًا دائماً بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، ثم مندوباً مقيماً لمصر باليونسكو ، إلى أن استقر « بالأهرام » كاتباً ورئيساً شرفيًّا لمجلس إدارته .

ويعنينا هنا الآن فكر « الحكيم » الذى ظهر فى روايته « عودة الروح » وفى مسرحياته « أهل الكهف » و« السلطان الحائر » و« الصفقة » و« الورطة » و« شمس النهار » وفى

تأملاته « تحت شمس الفكر » و« شجرة الحكم » و« سجن العمر » والكتب الخمسين الأخرى التى نشرت من عام ١٩٢٦ حتى اليوم ، والتى ترجم أغلبها إلى عشر لغات حية .

هذا الفكر يتبلور فى مذهبه النابع من معتقداته وموروثاته الدينية ، والذى أسماه « التعادلية » .. و« التعادلية » فى جوهرها « وسط » بين الأمور والأشياء ، وهى فى صميمها تقر بحقيقة « أن كل موجود من الله » ، وأن الموجودات المادية والمرئية والحسية لابد أن واجدها – بحسب نظرية النقيض – غير مادى وغير مرئى وغير حسى ... ولذلك فإن الحرية عند « الحكيم » مقيدة وليست مطلقة كما هى عند « سارتر » الذى يقول بأن القيد الوحيد المفروض على الإنسان هو حريته ذاتها ... وتتطور « تعادلية » الحكيم فتضع الكون بين متناقضين ، ومن ثم تعترف بالنقيضين أو بالشىء ونقيضه .. فالحياة يقابلها الموت ، والإيمان يقابله الكفر ، والحب تقابله الكراهية ، والعلم يقابله الجهل ، والثراء يقابله الفقر ، والقوة يقابلها الضعف ، والحرية تقابلها العبودية ، والعدل يقابله الظلم ، والنهار يقابله الليل ، والشمس يقابلها القمر ، والبرد يقابله الحر ، والرجل تقابله المرأة ، والصواب يقابله الخطأ ، والكرم يقابله البخل .. وهكذا .

وهكذا تنشأ الحركة وتنتظم فى درجة معينة من التعادل ،

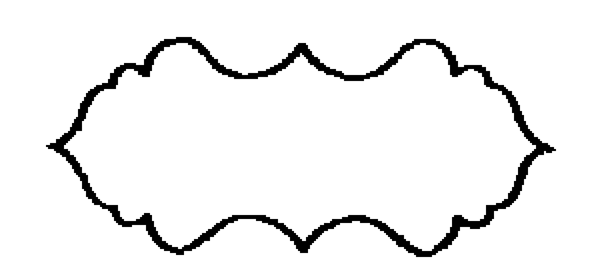
وعندما يفرط فى جانب يقاومه الجانب الآخر ، حتى يصلا إلى نقطة التعادل ، فيستقيم الكون ، ويستمر الوجود .

وعلى ذلك فإن -حرية الإنسان يقابلها قيد الزمن ، ولافكاك لأحد من هذا القيد ، لأن الحرية محكومة بزمانها ومكانها ، أو هى محاصرة من العالم الخارجى ، وإن وجودها المطلق لايتحقق إلا داخل النفس .. فإذا خرجت إلى الوجود فعليها أن تنزلق فى هوادة حتى لاتتهشم نتيجة للصدام المروع بالضرورة ... ولايجد « الحكيم » فى هذا الحصار شعورًا بعجز الإنسان أمام القوى الضاغطة عليه ، المؤثرة فى مصيره ، ولكنه يجد فى هذا الحصار دعوة للانفكاك وحافزًا على الكفاح .. فلايكفى الإنسان أن ينادى بحريته أو يعلن عنها ، ولكنه مطالب بتحقيق خَلَاصِهِ بالطرق المشروعة إنسانيًّا ودينيًّا واجتماعيًّا . والحكيم يقف هو الآخر بين نقيضين بفضل تعادليته ، فهو يقف بين « سارتر » بحريته المطلقة وبين « الميثولوجيا الإغريقية » بعبوديتها المطلقة .

والتعادلية ، بعد ذلك هى قبول الأمر الواقع بدون محاولة حمقاء لتغييره ، فقط عليها تكييفه ، لأنها لاتقوى على التخلص من نقاط الضعف ، وإن كان عليها أن تزيد من نقاط القوة ، ليحدث التوازن بحيث يعيش الخير إلى جانب الشر ، والتقدم إلى جانب التخلف ، لأن هذه هى سُنة الحياة .

ويلخص « الحكيم » فلسفته التعادلية فى مبادئ خمسة :
الوجود هو التعادل مع الغير ، فبغير الغير لايوجد وجود .. الفكر يجب أن يكون معادلاً للعمل ، فلايخضع أحدهما للآخر .. الضعف والنقص حالات لها ما يقابلها من قوى معوضة معادلة ، فالخير يجب أن يوازن الشر .. العقل بمنطقه وشكله يجب أن يعادل القلب بشعوره وإيمانه .. قوة التعبير فى الإبداع يجب أن تعادل قوة التفسير ، فلا تطغى إحداهما على الأخرى .

وأخيرًا يطالب « الحكيم » الإنسان – كل إنسان – بالعمل على معرفة حقيقته ، ليعرف كل الحقائق الأخرى بعد ذلك .





آرون..
وفلسفة العدل

١٩٠٥ - ١٩٨٣

آرون .. وفلسفة العدل
(١٩٠٥ - ١٩٨٣)

هو المفكر والفيلسوف الفرنسى « ريمون آرون » الذى توفى فى العشرين من أكتوبر ١٩٨٣ على إثر أزمة قلبية داهمته وهو فى ساحة قصر العدل يدافع عن زميل له بجامعة السوربون ضد كاتب آخر ، وكان « آرون » قد احتفل بعيد ميلاده الثامن والسبعين فى مارس ، كما كان يستعد لإصدار الجزء الباقى من مذكراته التى صدر الجزء الأول منها فى العام نفسه ..

و« آرون » أستاذ علم الاجتماع السياسى ، وعضو مؤسسة الفيجارو الصحفية . كان ليبراليًّا لاينحاز إلى اليمين أو اليسار ، وإن ظل يهاجم اليسار الستالينى واليسار السارترى على حد سواء ، على الرغم من أنه اشترك إلى جانب سارتر فى المقاومة

من أجل تحرير فرنسا بدون أن يكون موالياً للزعيم ديجول أو مؤيدًا له .

كما اشترك مع سارتر فى المقاومة ، وكان « آرون » زميلاً له فى مدرسة المعلمين العليا ، ولكنه اختار السلك الجامعى ، تاركاً سارتر لمتاهاته ووجوديته .

وكان « آرون » يقول : إننى أكثر تفاؤلا ، فلاشك أن المجتمع الحديث الذى لايزال فى دور التكوين ، قد حقق كثيرًا من الآمال ، فهو يمنح العدل للناس ، ويوزع المساواة بينهم ويهيئ لهم فرص الحياة المطمئنة ، فرص التعليم وفرص التقدم .

ويرى أن التفكير الاجتماعى وتطبيق علم الاجتماع على المجتمعات هو فى الحقيقة منهج جديد لم يظهر إلا فى أعقاب الثورة الفرنسية على أيدى فلاسفة الاجتماع : سان سيمون ، وأوجست كونت ، وإميل دوركايم .

وتتلخص فلسفة آرون الاجتماعية فى كتابيه الكبيرين : « مراحل الفكر الاجتماعى » و« مقدمة لفلسفة التاريخ » .. وفيهما يناقش أسلافه مونتسكيو ، وتوكفيل ، وماركس ، وفيبر ، كما يناقش معاصريه سارتر ، وشتراوس ، والتوسير .

ويؤسس آرون مناقشاته على مبدأ المساواة الذى طبقه الأسلاف على أساس من التحليل الاجتماعى ، ويعتقد آرون فى

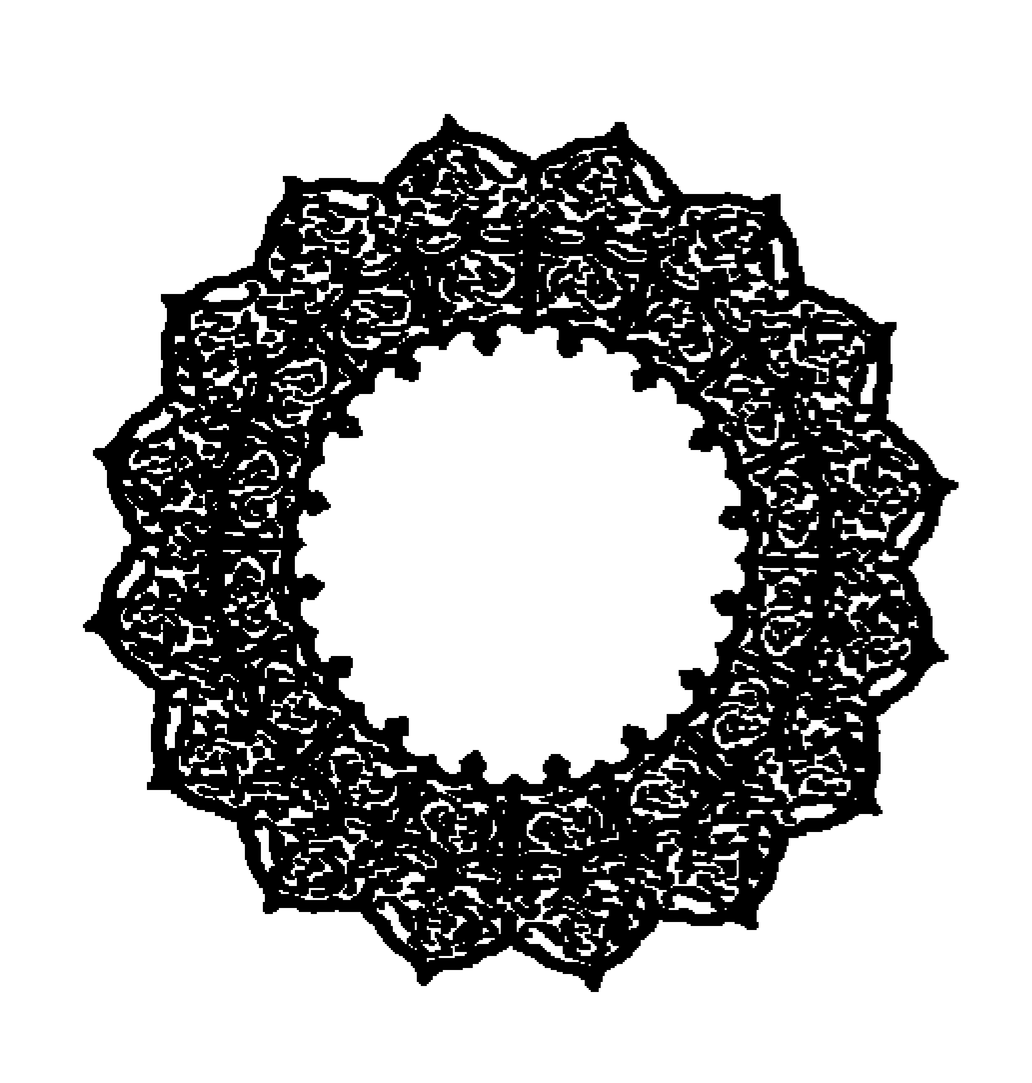
إمكان قيام منهج جديد للمساواة على أساس اقتصادى ، مع تحديد بناء هذا النظام الاقتصادى ، سواء فى جناحه النظرى (الرأسمالية) ، أو فى جناحه التطبيقى (التكنولوجيا) .

ويقرر آرون أن أى منهج سياسى لايتعارض مع أى منهج اقتصادى ، ولكن العالم يفتقر إلى منهج للمناهج أو إلى نظام للنظم ، ذلك أن دراسة المجتمع العالمى تتطلب الوقوف أمام نظم الانتخابات ، والتعرف على مدى التشابه أو الاختلاف بينها فى كل مناطق العالم ، فهناك ولاشك علاقة عارضة أو متفق عليها بين منهج الأحزاب المتألفة أو المتحدة ، وبين المنهج الاقتصادى العام ، وهناك - ولاجدال - علاقات كثيرة أخرى غير هذه العلاقة العارضة بين الاقتصاد التجارى وأحزاب الأغلبية .

إما الديمقراطية البرلمانية القائمة على منهج المنافسة ، فقد كانت مرتبطة فى الأصل بالاقتصاد التجارى القائم على منهج المنافسة هو الآخر .

ويعلن آرون عدم إيمانه بحتمية التاريخ ، أو جدلية التاريخ ، وعدم اعتقاده فى وجودهما على الإطلاق .. كما لايؤمن ولايعتقد فى دفع حركة سير التاريخ بناء على تفسير للمجتمع الرأسمالى فى الوقت نفسه .

وبرحيل « ريمون آرون » يسدل الستار على جيل بأكمله من المفكرين الذين ربطوا بين السياسة وعلم الاجتماع ، أو - بتعبير آخر - ربطوا بين الفلسفة السياسية والفلسفة الاجتماعية فى عصرنا الحديث .





أحمد زكي
وفلسفة الوحدة

١٨٩٤ - ١٩٧٥

أحمد زكى وفلسفة الوحدة
(١٨٩٤ - ١٩٧٥)

كان الدكتور أحمد زكى عالماً ومفكرًا وأديباً تركز علمه حول الكيمياء ، ولكنه فتح آفاقاً رحبة فى العلوم وانفتح عليها مؤسساً ومشرفاً وممارساً ، ومنظرًا ومعلقاً .. وتكز أدبه على الخواطر ، ولكنه امتد به إلى عالم القصة والرواية ، فأمده بالكثير مؤلفاً ومترجماً ومُحلِّلاً .. أما فكره فقد شمل الكون وشمل وحدانية الله ، ووحدة العرب ، عصرية الإسلام وعصر الإصلاح ، فلسفة الحياة وحرية الفلسفة ، تنظيم الأسرة ، وتحرر المرأة .. بناء المجتمع ، والديمقراطية السياسية .. التعليم الجامعى ، والثقافة الشعبية .

والدكتور أحمد زكى ، الذى توفى فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٩٧٥ عن عمر يناهز الثمانين ، « ولد فى الخامس

من أبريل عام ١٨٩٤ بمدينة السويس » ، وتلقى تعليمه فى القاهرة حتى تخرج فى مدرسة المعلمين العليا متخصصاً فى الكيمياء ، ثم استكمل دراساته فى جامعات « ليفربول » و« نوتنجهام » « ومانشستر » و« لندن » ليحصل على أعلى الدرجات العلمية ، وهو أول أستاذ مصرى فى الكيمياء ، وأول سكرتير عام لنقابة المعلمين ، وأول رئيس للأكاديمية المصرية للعلوم ، وأول رئيس تحرير لمجلة العربى الكويتية .

وكان الدكتور أحمد زكى مديرًا لجامعة القاهرة ، وعضوًا بمجمع اللغة العربية ، ورئيساً لتحرير مجلة الهلال ، وعضوًا بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، وعضوًا بالمجلس الأعلى لدار الكتب ، وعضوًا بمجلس إدارة البنك الصناعى .

كذلك كان الدكتور أحمد زكى كاتباً فى البلاغ والثقافة والرسالة والاثنين ، وهو مؤسس الجمعية الكيميائية المصرية ، والمجمع المصرى للثقافة العلمية ، ومنشئ المعهد القومى للبحوث العلمية .

والدكتور أحمد زكى هو آخر وزير للشئون الاجتماعية فى آخر حكومة قبل الثورة ، والتى لم تستمر غير عشرين يوماً برياسة حسين سرى باشا ، إذ أن حكومة نجيب الهلالى باشا لم تدم أكثر من أربع وعشرين ساعة قامت بعدها ثورة ٢٣ يوليو .

ترجم الدكتور أحمد زكى العديد من الكتب العلمية ، وخاصة فى الكيمياء ، ووضع أكثر من كتاب يجمع بين الرؤى العلمية والفكرية والدينية والاجتماعية ، كان من أبرزها « مع الله فى السماء » و« مع الله فى الأرض » و« قصة الميكروب » و« فى سبيل موسوعة علمية » إلى جانب مقالاته التى نرجو أن تُجمع فى كتب منفصلة .

وتجلى الجانب الأدبى عند الدكتور أحمد زكى فى ترجمته لروايتى غادة الكاميليا ، وجان دارك ، ومجموعته القصصية « بين المسموع والمقروء » وخواطره المنشورة فى « ساعات السحر » و« مع الناس » .

أما فكره فيتميز بخصائص تشبه خصاله : التعقل ، والنظرة الكلية بعيدة المدى ، والرؤية الواضحة ، والوسطية ، وعدم الانحياز لمذهب أو حزب أو أيديولوجية ، أو نظام أو فئة أو طائفة ، ولكنه كان أخلاقيًّا فى آرائه كما فى سلوكه وتعامله مع الآخرين ، ولذلك لم يكن سياسيًّا على الرغم من دعوته الثلاثية : السلام العالمى ، والوحدة العربية ، والتقدم .

كان يؤمن بأن الحق فوق القوة ، ولكنه يعترف بأن القوة فوق الحق فى زماننا هذا ، وأن قانون الغاب هو الذى يحكم ويسود ، وأن الإنسان إمّا آكِلٌ أو مأكول فى غياب العقل

والعدل والخير .. ذلك أن أوراق اللعبة كلها فى يد الولايات المتحدة الأمريكية ، وما هيئة الأمم المتحدة إلا ناسك فى معبدها ، حتى أن الاتحاد السوفيتى لايمكن أن يطاولها فى شيء إلى النهاية ، وإلا هلك الجميع .. كما أن الصهيونية ليست هى إسرائيل ، وإنما هى الوجه القبيح للسيطرة الإمبريالية ، وأزمة الشرق الأوسط هى أزمة وحدة الصف .

السلام إذن محفوف بالمخاطر ، والديمقراطية نظرية نسبية ، والقومية حالة وجدانية ، والوطنية مرهونة بالغربة ، والوحدة رهن بالمصالح ، والقيادات .

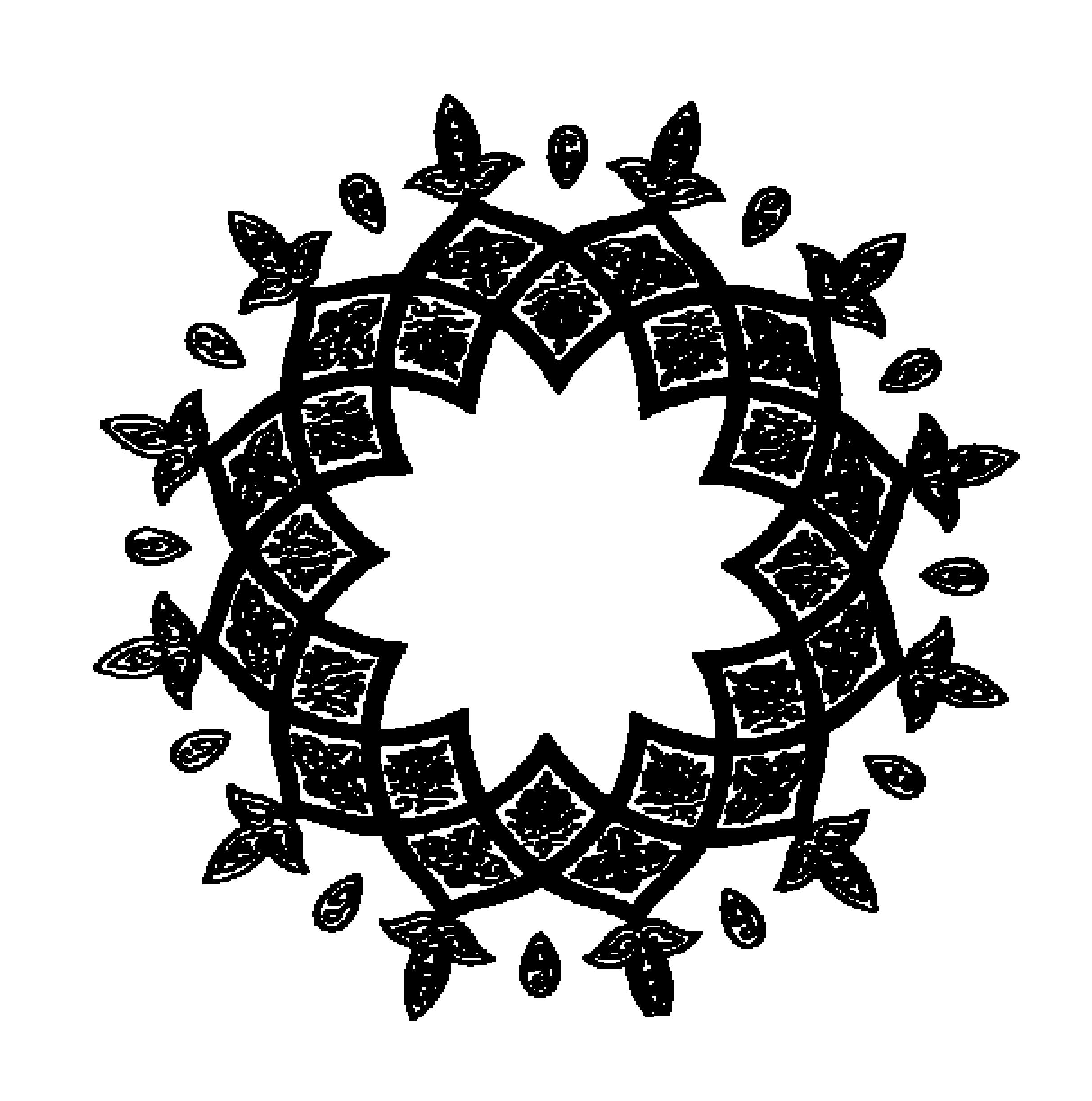
وقد طالب الدكتور أحمد زكى بإنشاء جامعة إسلامية تشمل الجامعة العربية حتى يمكن الرجوع إلى الدين السمح وتخليصه مما أحاط به فى عصور متتالية ، وخاصة ذلك الاضطهاد الذى نشهده فى مناطق مختلفة من عالمنا المعاصر ، فالإسلام ليس عقيدة تختار أو تفرض أو تحارب ، ولكنه حركة إنسانية وحضارة علمية .

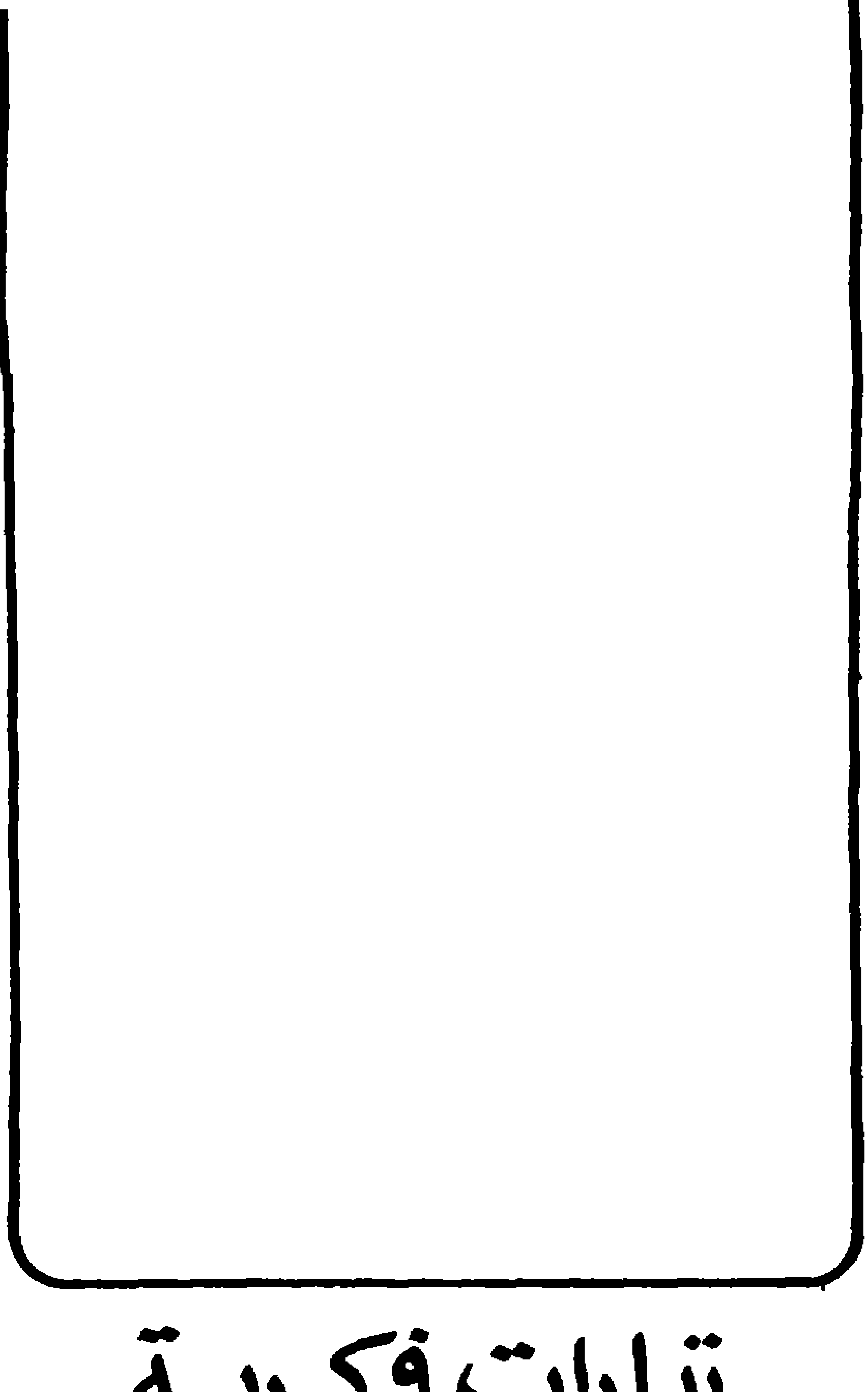
وتقوم نظرية البناء الاجتماعى فى فلسفة الدكتور أحمد زكى على العادات والتقاليد والقيم والغرائز ، وهى مكونات السلوك الإنسانى بشكل عام .. فالضمائر عنده أهم بكثير من القوانين ، والرقابة الذاتية أجدى من الرقابة الحكومية أو الجماعية .

ويستند فى نظرته للإصلاح الاجتماعى إلى القضاء على الفقر ، فهو المأساة التى تؤثر على الإنسانية جمعاء ، أما الحل فيكمن فى الصناعة والتصنيع .

ويرى أن المرأة هى أساس الأسرة ، وينبغى أن تكون زوجة صالحة ومربية فاضلة ، دون أن يتعارض هذا مع تعليمها وثقافتها وعملها خارج البيت .

وكم من نظرات ونظريات أخرى تضع الدكتور أحمد زكى فى طليعة الفكر العربى الحديث ، بل والعالمى أيضاً .





تيارات فكرية تتصارع فى الغرب

تيارات فكرية تتصارع فى الغرب

فى فرنسا بالتحديد ، وعلى مدى السنوات الأخيرة أخذت تتكون فى أعقاب أحداث « مايو » الشهيرة تيارات فلسفية التقت جميعاً حول ضرورة إعادة تقييم المواقف والآراء والنظريات الفلسفية التقليدية ، ورفض منطلقات « ماركس » و« تروتسكى » و« فرويد » ، وتجديد علم النفس ، وإحلال علم الأخلاق بدلاً من العلوم السياسية ، وتجنب معطيات الاقتصاد السياسى ، والثورة على طرق تدريس الفلسفة ومدرسيها ، والبحث عن صيغ لغوية وأسلوبية جديدة ، ومحاولة الربط دائماً بين التنظير والتطبيق .. وبرغم كل هذا الهدم والرفض والمنع والتقويض ، فإنهم لم يأتوا بفلسفة جديدة ، أو حتى بمنهج فكرى جديد ، لأنهم غير قادرين بعد – ونرجو ألا يكون مطلقاً – على البناء .

ومع هذا اختلفوا فيما بينهم ، فتباينت آراؤهم ، وتعارضت سبلهم ، وتعددت قضاياهم ..

وقد برز من بين هؤلاء « الفلاسفة الجدد » عشرة من « المفكرين الصغار » بعد أن غاب عن الساحة عمالقة الفلسفة : « سارتر » و« بشلار » و« مارسيل » و« بونتى » وغيرهم ..

أما هؤلاء العشرة فهم : يودريار (جان) ويرى أن الماركسية « لم تعد قادرة فى العصر الحديث على تطوير المجتمعات وتأمين احتياجاتها ، وتحقيق أحلامها وتثبيت قيمها ، فى وقت تحولت فيه هذه المجتمعات إلى طاقات استهلاكية أكثر منها إمكانيات إنتاجية ، نتيجة للدعاية الطاغية والموضات المتغيرة التى فرضتها الرأسمالية ضماناً لمصالحها ، وتدعيماً لمكاسبها دون أى مراعاة للبناء الاقتصادى المعرض للانهيار » .

وينتقد بونوا (جان – مارى) فى كتابه « مات ماركس » التعاليم الماركسية – اللينينية ، المتعللة بنظرية حتمية التاريخ ، كما جاء فى كتاب « رأس المال » ، والقائلة بأن الكون مادة أبدية .. ويرى « بونوا » أن الفكر الصينى بزعامة « ماو » ماهو إلا نتاج للفكر الماركسى ، برغم خلافه مع

المناهج والمسالك السوفيتية ، وأن كليهما فى حقيقة الأمر مصب لمنابع الفكر الغربى ، غير القادر هو الآخر - شأنهما معاً - على التوفيق بين ما يقال من كلمات ضخمة وشعارات رنانة ، وما يتحقق منها على أرض الواقع ، تطبيقًا للأهداف السامية التى تستهدف سلام الإنسان ورفاهيته ورخاءه .

أما كاستورياديس (كورنيليوس) فيرى أن خطأ ماركس الفادح كان فى تقسيمه لطبقات المجتمع الواحد ، ودفعه للصراع الطبقى اعتقادًا خاطئاً منه - كما ثبت فى العصر الحديث - بأن تطور المجتمع يقوم دائماً على الأيدى العاملة وتوفر الإنتاج ، متناسياً تماماً القوى الخارجية التى أسماها هو نفسه بالطبيعة ، وتقول الأديان جميعاً والإنسان على فطرته بأنها الله .. ومن هنا كان هذا التناقض الظاهر بين المجتمع والتاريخ .. و« كاستورياديس » لايعترف بالفلاسفة بدءًا بسقراط وأفلاطون وأرسطو وانتهاء بسارتر ، وإن كان يعترف بأهمية « نيتشه » وبآرائه الفلسفية . وهو من أشد المطالبين بتغيير طرق تدريس الفلسفة فى المدارس والمعاهد والجامعات ، ومن أكثر المتشددين ضد المدرسين والأساتذة الذين أصبحوا عبيدًا للمفاهيم التقليدية التى لم تعد صالحة للعصر ، ولا لأى من طبقاته ، بما فى ذلك الطبقة البورجوازية التى ينتمون إليها ، والتى يخدمون مصالحها منطلقين من أفكارها ومبادئها البالية .

شاتوليه (فرنسوا) الذى صب جام ثورته هذه فى كتابه « فلسفة الأساتذة » ، وفيه يبين الفارق بين الفلسفة كنظريات ، وتدريس الفلسفة بمعنى ذلك الاختلاف بين المفكر والفيلسوف وأستاذ الفلسفة .

ومن أشد المعجبين بنيتشه وفلسفته دولوز (جيل) مؤلف « نيتشه والفلسفة » و« رأسمالية وشيزوفرانيا » وإن حاول أن يعيد تقييم « هيوم » و« كانط » و« سبينوزا » و« بروست » على العكس من زملائه الرافضين لكل الفلاسفة على الإطلاق ..

و« دولوز » يعترض على علوم النفس التحليلية التى تصيب الإنسان بحالة من الشيزوفرانيا أو الانفصام ، كما يستنكر كل الممنوعات التى تقف ضد رغبات الإنسان الطبيعية بدعوى الأخلاق .

ومن أهم مؤلفات ديريدا (جاك) « الصوت والظاهرة » و« شىء من علم اللغة » و« الكتابة والاختلاف » .. وهو ينادى بالثورة على لغة الفلسفة ، وخاصة الفلسفة الغربية التى تفرق بين ما هو منطوق وما هو مكتوب ، مبيناً أن كليهما ضرورى لاستقامة المعنى والمبنى ، تماماً مثل الروح والجسد فى الوجود الإنسانى .. وركز كل فلسفته على دراسة اللغة المدونة

فى الفلسفة من ناحية ، والمستخدمة فى حياتنا اليومية من ناحية أخرى ، فهو يرى أن اللغة ظاهرة حية من ظواهر الإنسان ، والتى كانت وستظل سبباً جوهريًّا فى متاعبه ومشاكله على مر العصور .

ويصب دول (جان -بول) هجوماً عنيفاً فى كتابه « رغبة الثورة » على الماركسية التى سمحت لستالين بالحكم بنظام القبضة الحديدية ، كما أتاحت الفرصة لديكتاتورية الأحزاب بالتحكم فيما أسمته الطبقة الكادحة أو العاملة .. كما أكد على أن هذا الفكر فقد صلاحيته منذ نصف قرن من الزمان ، مما يؤكدعلى أنه كان فكرًا وليد الحاجة والظروف ، وليس فكرًا إنسانيًّا نافعاً لكل الأجيال .. ويدعو « دول » للثورة الثقافية ، ولكن ليس على الطريقة الصينية ، مشيرًا إلى الخلاص بالأدب والفن منبعى الفلسفة الإنسانية الجديدة ..

من أكثر المناهضين للحروب القديمة والحديثة ، وخاصة الهتلرية ، ومن أكثر المنددين بالقهر والظلم ، وخاصة فى المعتقلات ، جلاكسمان (أندريه) الذى يبين أن الطبقات المعدمة هى أكثر الطبقات تعرضاً لاستبداد الحكم القائم على استهداف السلطة ، سواء كان نازيًّا أو شيوعيًّا أو ديكتاتوريًّا ، وأن هذه الطبقات غالباً ما تضيع فى مقولات وقوالب وشعارات النظم السياسية المختلفة ، والتى تلقى رواجاً فى

الدول الاشتراكية وتلقى معارضة فى الدول الرأسمالية .

ويتفق ليوتار (جان - فرنسوا) مع « دول » فى أن الخلاص فى عالمنا الجديد سيتحقق عن طريق الأدب والفن .. ويرى أن الكلمة المنطوقة لكى تصلح لعصرنا لابد أن تصبح مرئية ، وهذا ما يجعله يبحث فى إمكانية اللغة وقدرتها على التجسد ، كما يرى أن الفلسفة - وهى قمة الفكر والتفكير - ما هى إلا إحدى غرائز الإنسان المعنوية التى تختلف كثيرًا عن غرائزه الحسية ، والتى يجب أن تنطلق بدون قيود بحجة الأخلاق ، حتى تتحرر الطبقة الكادحة فلاتجد فى قيم البورجوازية والأرستقراطية قيودًا تفرض الفوارق وتقيم الفواصل بينها .

لم يكتف سوريه (ميشيل) بالاعتقاد فى الأدب والفن سبيلاً للخلاص ، ولكنه أضاف إليهما العلم والمعرفة ، وهو يرى أن الفكر الجديد لابد أن يقوم على مصادره القديمة ، وأن الفواصل بين العلوم المختلفة لم تعد قائمة فى عصرنا الحديث بعد أن تجمعت كل العلوم فى علم كونى واحد ، يطالب بتسخيره من أجل رفاهية الإنسان وليس من أجل تدميره .. وأنه بقدر ما كانت الفلسفة ثابتة المفاهيم والمعايير ، فإن العلم الحديث متحرك حركة لا نهائية وبلا حدود .

كتب أخـــرى .. للمـؤلف

صـــدرت :

مهاجر بريسبان	مسرحية جورج شحاتة دار المعارف ١٩٦٩ .
الآلة الجهنمية	مسرحية جان كوكتو الأنجلو ١٩٦٩
انفعـــالات	قصص ناتالى ساروت هيئة الكتاب ١٩٧١
دقات المسرح	دراسات ونقد تطبيقى هيئة الكتاب ١٩٧٣
ليلة القتلة	مسرحية خوذيه تريانا هيئة الكتاب ١٩٨٠
كهف الحكيم	دراسة عن أهل الكهف دار المعارف ١٩٨٠
شباب هذا العصر	رؤى ودراسات غربية المركز الجامعى ١٩٨١
صرخات فوق المسرح	رؤى ودراسات غربية دار المعارف ١٩٨١
جرنيكا .. أزمة العصر	رؤى ودراسات غربية دار المعارف ١٩٨١
سينما نعم .. سينما لا	دراسات ونقد تطبيقى هيئة الكتاب ١٩٨٢

الجحـيم	رواية هنرى باربوس هيئة الكتاب ١٩٨٦
دون كيشوت	مسرحية إيف جامياك هيئة الكتاب ١٩٨٧
نبض العصر	دراسات ونقد تطبيقى كتاب المواهب ١٩٨٧
فصل فى الكونغو	مسرحية إيميه سيزير هيئة الكتاب ١٩٨٧
قمم عربية وغربية	حـوارات ونـدوات العربية للنشر ١٩٨٨
ليلة القدر	رواية الطاهر بن جلون الرواية العالمية ١٩٨٨
الإنسان .. كلمة	دراسات عربية وغربية هيئة الكتاب ١٩٨٨
المعقول واللامعقول	كوكتو ، سالاكرو ، يونسكو المسرح العالمى ١٩٨٩
ألوان العصر	دراسات تشكيلية وأشعار دار المريخ ١٩٨٩
اختيار	قصص قصيرة وأشعار دار الشعب ١٩٨٩

تصـــدر :

المضيفة الحسناء	مسرحية كارلو جولدونى
عصر الشك	دراسة لناتالى ساروت
رسائل من مصر	عن الثورة العرابية
فى رحاب نجيب محفوظ	بعد فوزه بجائزة نوبل

الفهــــرس

الصفحة

الصفحة

مفكرون .. لكل العصور



هذا الكتاب

يعتبر هذا الكتاب الصغير حجماً ، الكبير من حيث المحتوى ، هو محاولة جادة وخالصة للتعريف بحركة الفكر الإنسانى وتياراته المختلفة عبر التاريخ .

وهو إذ يستهدف إنزال « الفلسفة » من برجها العاجى وتقريبها من « الناس » يعمد إلى مواكبة روح العصر ، مراعاة لطاقة « القارىء المعاصر » .

أما « الاختيار » فهو تمهيد لتقديم « موسوعة مصغرة » شاملة وكاملة ، بإذن الله تعالى .

الناشر



طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ٣٩٣٦٧٤٣ برقيا دارشادو ص ب ٢٠٢٢ القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING PUBLISHING DISTRIBUTION

16 ABD EL KHLEK SARWAT St. P.O. Box 2022 - CAIRO - EGYPT PHONE : 3923525 - 3936743 - CABLE : DARSHADO